مَعَ الرَّسُولِ وَالرِّسَالَةِ

دروسٌ وَعِبَر

إعداد

يحيى قاسم أبو عوَّاضة

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ ‹البقرة:١٥١ - ١٥٢›، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل ولا خلف لقوله ولا تبديل، وأشهد أن سيدنا وقائدنا وقدوتنا وحبيب قلوبنا محمداً عبده ورسوله، وصفيّه ونجيّه، وخيرته من خلقه، إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراجٌ لمع ضووُه، وشهابٌ سطع نوره، وزندٌ برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل.

أرسله الله على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم، بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلَّغ رسالات الله، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأرسى دعائم العدل، وأقام الحجة، وأوضح المُحجة، وجاهد في سبيل الله صابراً محتسباً حتى أتاه اليقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ ‹الأحزاب:٥٦›، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وسلم على محمد وعلى آل محمد، كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وارضَ اللهم عن أصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار، وعن الناهجين نهجه، المقتفين أثره، المتمسكين بهديه، المستبصرين بنوره إلى يوم الدين.

أما بعد..

فإننا أحوج ما نكون في هذه المرحلة إلى العودة الصادقة إلى الرسول ورسالته وإلى إحياء شخصية الرسول الأكرم (صلوات الله عليه وعلى آله) في وجدان الأمة وفي مشاعرها، حتى يكون للرسول حضور في واقع الأمة بهديه ونوره وأخلاقه وروحيته العالية، حضورٌ في القلوب، وحضورٌ في النفوس، عزماً وإرادة، حضوره كقدوة وقائدٍ وأسوة، نتأثر به في سلوكنا وأعمالنا ومواقفنا وقراراتنا، نتأثر به ونهتدي به، وبالهدى الذي أتى به من عند الله في واقع حياتنا.

في مرحلة عاصفة لأمتنا يسعى أعداؤها الألدّاء أن يفصلوها وأن يبعدوها عن منابع عزها ومجدها، وأن يكون انتماؤها إلى الإسلام ونبيّه وقرآنه شكلاً لا مضمون له، وزيفاً لا حقيقة له، وأن يكونوا هم من يتحكمون بالأمة في واقعها السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وبطغيانهم وبفسادهم وبإجرامهم وبحقدهم وعداوتهم يؤثرون في واقع الأمة ليس فيما يصلحها، وليس بما هو خير لها، بل يؤثرون في واقع الأمة بما يزيدها فرقة وشتاتاً، وذلةً وهواناً، وجهلاً وتخلفاً، وانحطاطاً ودناءة، وضعفاً وعجزاً، وشقاءً وعناءً، ويستمرون في نهب ثرواتها وسرقة خيراتها، والاستفادة من جغرافيتها، فهم أعداء لا يهمهم مصلحة هذه الأمة.

ولقد عمل السيد حسين رضوان الله عليه ومن بعده السيد عبد الملك حفظه الله على إحياء الرسالة المحمدية في واقع الأمة وتقديم شخصية الرسول القائد المعلم المربي والهادي للأمة ليكون قدوة ومعلما ومربياً وهادياً لهذه الأمة التي اجتمع لها الضلال والشقاء بسبب بعدها عم مصادر عزتها وقوتها.

وقـد جمعـت هذه المادة مما قدماه حول شخصية هذا النبي العظيم ومزجتـه بالنص التاريخـي معتمداً في نقل النصـ التاريخي على كتاب السيـرة للدكتـور الشهيد مرتضى بـن زيد المحطـوري رحمة الله عليه ومن كتاب السيرة للمستوى الثالث الذي أعد للدورات الصيفية.

والله الموفق

بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٤٣٨هـ

❊ ❊ ❊

من أين نتعرف على شخصية الرسول صلوات الله عليه وعلى آله؟

يقول السيد حسين رضوان الله عليه حول هذا الموضوع:

القرآن هو يعتبر أهم مصدر لمعرفة أنبياء الله ولمعرفة رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؛ لأنك تفترض في البداية وهي قضية الناس مسلِّمين بها أن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان رجلاً قرآنياً يتحرك بالقرآن.

فهمك للنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) هو مرتبط بفهمك للقرآن، عندما تفهم القرآن، وتفهم كيف كانت حركته في موقف معين؛ تجد أنه كيف كانت حركته هذه قرآنية، يجسد فيها مبدأ قرآنياً، يقوم فيها بدور تربوي قرآني، عندما يتحدث عن غزوة تبوك أو أحد أو بدر أو غيرها... أليست سيرته تبدو حركة؟ حركة قرآنية، ويجسد مبادئ وتوجيهات، ويقوم في نفس الوقت بأعمال تربوية للأمة.

عندما يقرأ أحدٌ السيرة الأخرى التي قدمت كأحداث تاريخية، أليست عبارة عن أحداث تاريخية؟ لكن أنت لن تعرف النبي من خلالها، أو معرفة محدودة جداً، أحداث تاريخية. ارجع إلى القرآن الكريم ستفهم لماذا النبي ركز على أن تكون حركته بهذا الشكل؟ لماذا استخدم هذا الأسلوب؟ تجد أنه كان يركز على هذا الأسلوب باعتباره مبدأ هاماً جداً يرسخه في ذهنية الأمة لتتربى عليه أو تسير في حركتها على أساسه، وهكذا أشياء كثيرة من هذا القبيل.

القرآن ليس فقط يعرفك بمجرد حركات الرسول بل بمشاعر الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) يعرفك حتى تقريباً تفهم مشاعره وتفكيره، تفهم كيف كانت نظرته للمجتمع الذي هو فيه، تفهم كيف كان

وهو على فراش الموت كيف كان في نظرته، أنه مات متألماً، مات متألماً فعلاً؛ أن الأمة هذه أنها ما استجابت بالشكل المطلوب، ما تفهمت القضية بالشكل المطلوب، ما التزمت بالشكل المطلوب.

تفهم النبي بأنه كان في حركته في ذلك العصر، أعماله لم تكن فقط مرتبطة بعصره، في عصره ما كان يعمله من أعمال قام بها تعتبر هداية للناس إلى آخر أيام الدنيا، يكشف أشياء ويؤكد على أشياء ويرسخ أشياء، يعني هو كان نبي يفهم أنه نبي للعالمين إلى آخر أيام الدنيا، فكانت حركته يلحظ فيها امتداد رسالته، وتلاحظ أنها هذه لها نظائر في القرآن الكريم، لها نظائر هذه.

ويقول: في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

إذاً فهنا تعرف شخصية الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) قد تكون في كتب السير تاريخاً يعرض فقط أحداثاً معينة مؤرخة ونكتب فيها أرقاماً معينة، لكن التحليل لشخصيته قضية ثانية، التحليل لمنطلقاته في عمله في تكتيكه العسكري في اختياره للقادة في اختياره للموقع وأشياء من هذه لا تتناولها معظم السير فعلاً، وهي قضية هامة، أي ليس المطلوب فقط من السير أو من التاريخ أن نعرف متى وقعت الغزوة الفلانية وكم كان عدد المسلمين وكم كان عدد الكافرين وانتهى الموضوع، المطلوب أن نعرف كيف كان بطريقة تحليلية كيف كان تفكير النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) كيف كان تخطيطه كيف كانت مشاعره كيف كان تقييمه كيف كانت الوضعية بشكل عام، وضعية جانب المسلمين ووضعية الآخرين الكافرين الوضعية بشكل عام، وضعية العالم في ذلك الزمن بشكل عام حتى يكون التاريخ له أثر في النفوس ويعطي دروساً مهمة ويعطي عبرة وتعرف من خلاله النفسيات.

معرفة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) قضية هامة - كما أسلفنا - في أن يعرف الناس فعلاً أنه نعمة عظيمة من الله ولهذا قال بعد: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: من الآية١٦٤) وفي نفس الوقت يستوحي الناس من سيرته، يستلهمون من حركته كيف يتحركون وكيف يعملون. في نفس الوقت أيضاً لا يعتبر أن الأشياء كانت مجرد معجزات خارقة في كل الحركة الله سبحانه وتعالى هو على كل شيء قدير، ولكنه حكيم تكون الأشياء تسير وفق ترتيبات دقيقة، رسوله حكيم لم تكن أعماله عشوائية، أعماله تسير وفق ترتيبات دقيقة وخطط محكمة ورؤى صحيحة ومعرفة حقيقية؛ لأن الفارق فيما إذا كنا نتصور أن كل ما كان يحصل كان عبارة عن معجزات خارقة معجزات، معجزات إلى آخرها يقول الناس من بعد: [إذاً محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) قد التحق بالله وما معنا شخص تأتي على يديه معجزات خارقة، خارقة... إلى آخره، إذاً ما نستطيع نعمل شيئا] عندما تعرف بأنه كانت تلك الحركة تقوم على خطط محكمة ورؤية حكيمة وترتيبات حكيمة وأنها مما هدى الله رسوله (صلوات الله عليه وعلى آله) إليه ومن خلال القرآن الكريم، ولهذا ألم يقل في القرآن الكريم بأنه: كتاب حكيم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (هود: من الآية١).

أن تكون الأشياء تمشي على الطريقة هذه، معناه ماذا؟ أنها قابلة للإستمرار قابلة أن يسير جيل آخر بعد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وفق هدى الله وفق ما يؤتيهم الله من حكمة أو ما يأخذون من كتاب الله من حكمة وما يوفقهم الله إليه من حكمة في عملهم، ولو لم يكن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) موجوداً بينهم لكنه موجود بماذا؟ بآثاره، إذا حاولنا أن نعرفه هو وليس فقط نعرف أنه

قائد المعركة الفلانية بتاريخ كذا وعدد كذا.... إلى آخره، لا، تعرفه هو لتعرف كيف كان دقيقاً في عمله وكيف كان حكيماً في تعامله مع الأحداث وتعامله مع الناس وكيف كان أيضاً، كيف كانت نظرته إلى الناس بشكل عام بما فيهم الأعداء.

لأنه فعلاً الذي حصل أنه أبعد الأنبياء عن قائمة أن يكونوا أشخاصاً يستلهم الناس من عملهم ما يفيدهم في حركتهم في مجال العمل لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ترافقت عدة أشياء منها: روايات يتجلى من خلالها رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وكأنه إنسان عادي أو غبي وليس فقط عادي إنما لا يفهم شيئاً كما يحكون في غزوة [بدر] أعني: روايات فيما يتعلق بميدان الجهاد وحتى فيما يتعلق بحياته الخاصة وأشياء كثيرة قدموه وإذا فقط فلان يوجهه أنه يحجب نساءه وفلان يقول: لا، أحسن نكون هناك على النهر من أجل عندما نكون في مواجهة مع العدو نكون قريبين من الماء ونسبقهم إلى الماء! وأشياء من هذه يبدو شخصاً بسيطاً لا يعرف شيئاً! لا، هو كان شخصاً هاماً جداً حكيماً وقديراً ذكياً فاهماً، قائداً على أعلى مستوى للقيادة فعلاً، حتى أن الغربيين عندما حللوا شخصيته ومواقفه اعتبروه أنه أعظم قائد في التاريخ كما يحكى أنهم فعلاً اعتبروا أنجح وأعظم قائد في التاريخ محمد (صلوات الله عليه وعلى آله).

وكيف كان على الرغم من كفاءته العالية يتوكل على الله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: من الآية١٥٩).

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من أهم وسائل التعرف على هذا النبي العظيم

يمن الإيمان والحكمة يجعل من مناسبة المولد يوماً مجيداً رغم التحديات:

كما في كل عام، وبكل حبٍّ وإعزاز وشوق ولهفة وإكرام وتقديس، يحتفلُ شعبُنا يمنُ الإيمان والحكمة، يمنُ الأنصار، يمنُ الأوس والخزرج، يمنُ الفاتحين، بهذه المناسبة ليجعلَ منها يوماً أغرَّ في جبين الدهر، يوماً مجيداً، ويوماً مشهوداً، عرفاناً بالنعمة، وشكراً لله، واحتفاءً بخاتم الأنبياء، وتأكيداً متجدداً للولاء، ورداً لكل المحاولات الشيطانية من جانب الأعداء في استنقاص مكانته في النفوس، وقدرِه في القلوب، بُغيةَ إبعاد الناس عن التمسك به والولاءِ له، وشعبُنا اليمني العزيزُ لم يُثنه عن الاحتفال الكبير بهذه المناسبة هذا العدوان الغاشم وكل محاولاتُ الأعداءِ المجرمين الذين يسعون في كل عام لتخويفه عن الحضور إلى ساحات الاحتفالِ بالمناسبة، من خلال جرائم القتل واستهداف التجمعات، بل تزيده وعياً بأهمية المناسبة، حيثَ يجعل منها محطةً سنويةً لاكتسابِ الوعي، وشحنِ الهمم، واقتباسِ النور، وتعزيزِ الولاء للرسول والرسالة، والتعبئةِ المعنويةِ ضدَّ أعداءِ رسول الله، أعداءِ الحق، أعداءِ البشرية

ولهذه المناسبة العزيزة دلالاتها:

١) الابتهاج والاعتراف بمنّة الله العظيمة وفضله العظيم علينا كمسلمين وعلى العالمين أجمع، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ‹يونس:٥٨›.

نحـن كمسلمين كأمة مسلمة كمجتمـع مؤمن يجب أن تكون نفوسنا متعلقة مع فضل الله تعترف لله بعظيم نعمته وتقدِّر نعم الله عليها وفي مقدمة هذه النعم نعمة الهداية التي كانت عن طريق الرسول والقرآن، ومحمـد هـو رسول الهدايـة أرسلـه الله بالهدى ودين الحـق، فمثل هذه المناسبـات العزيـزة الإيمانيـة التـي لها علاقـة مهمة بديننـا ونستفيد منها فيما يقرّبنا إلى الله تستحق منا الفرح والابتهاج والسرور، لقد أراد لنـا أعداؤنا أن يشدّونـا في مشاعرنا إلى مناسبات تافهة لا قيمة لها ولا أثـر فـي واقع الأمة ويبعدونا عن مثل هـذه المناسبات العظيمة ولكنهم فاشلون وخائبون وخاسرون.

٢) إن إحيـاءَ ذكـرى مولـد النبـي هـو مناسبـةٌ للحديـث عـن الرسـولِ ومبعثـه ومنهجـه ورسالَته، وعن واقع الأمـة وتقييمه، وهو أيضاً من الإشـادَة بذكـره، والله سبحَانه وتعالـى حينما قرن الشهـادة برسالته ، مـع الشَهـادة بوحدانيتـه فـي الأذان والصـلاة، كلَّ يـوم وليلة خمسَ مرّات، وحينما قال ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ لأنه أراد أن يبقى رسـولُ الله حيّـاً في وُجداننا، وحاضـراً في أذهاننا، فَصلَتُنَا بهـذا النبي هي صلةٌ بالرسالة، صلةٌ بالهدى، وارتباطٌ بالمنهج الإلهي، وارتباطٌ بالرسول مـن موقعه في الرسالة ، هادياً وقائـداً ومعلماً ومربياً وقدوةً وأسوةً، نهتـدي به، ونقتدي ونتأسى به، ونتأثـر به، ونتّبعُه، وما أعظم حاجتنا وحاجة البشرية إلى ذلك، لأنه لا نجاةَ ولا سعادَةَ للبشرية إلا به، وإن أكبـرَ مـا جلب الشقـاءَ والمعاناةَ على البشرية هـو ابتعادُها عن هدى الله، ومخالفتُها لتوجيهاته.

٣) التعبيـر عـن الولاء لرسـول الله محمد (صلـوات الله عليه وعلى آله) هـذا الجانـب المهم كأساس مـن أساسيات الإيمان لا يتـم الإيمان إلاَّ

بـه ولا يتحقـق إلاَّ بـه. الولاء لرسول الله والإيمـان بولايته وتعظيمه وتوقيـره والاهتـداء بـه والاتبـاع لـه؛ لأن الله جعلـه لنا هاديـاً معلماً يزكينـا يعلمنا الكتـاب والحكمة، وجعله لنا الأسوة والقدوة فنتأثر به ونهتدي به ونسير على نهجه ونتأثر به في مواقفنا نتحرك في نفس الطريـق التي تحرك عليها، نتفاعل طاعـة عملاً التزاماً مع الرسالة التـي أتى بها وهي القرآن الكريم والإسلام العظيم والتعبير عن هذا الـولاء لـه أهميته الكبيرة؛ لأن الأعـداء يحاولـون أن يفكّونا فكّاً عن كل هـذه الروابـط العظيمة التي سنستعيد بها مجد أمتنا وعزة أمتنا وقوة أمتنا التي كانت أيام محمد.

❋ ❋ ❋

هدى الله ووحيه يواكب مسيرة الحياة البشرية

منذ أن خلق الله الإنسان ومنذ بداية مشواره في الحياة منذ آدم أبو البشر وهدى الله ووحيه ونوره يواكب مسيرة الحياة البشرية، ينير لها الطريق، ويرشدها إلى الخير، ويبقيها على ارتباط في شؤون حياتها مع الله الخالق الملك، وحجة لله على عباده، ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ‹النساء:١٦٥›؛ لأن الإنسان في حياته هذه مسؤول عن أعماله وعن أقواله وعن مواقفه وعن قراراته، ومسؤوليته عظيمة وجسيمة، وعظم الجزاء يدل على عظم المسؤولية، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ ‹الزلزلة:٧-٨›.

وعلى مدى تاريخ البشرية في أممها الغابرة أرسل الله رسله لهداية البشر وتزكيتهم ورسم طريق الحق والخير وإقامة العدل، وإزالة الظلم والمنكر ودفع الفساد وقيادة البشرية إلى سعادتها في الدنيا والآخرة.

من أبرز الأهداف لرسل الله ولرسالاته

١ـ تحرير الإنسان من العبودية لغير الله

هذا العالم كله مملكة الله بسمائه وأرضه وإنسه وجنّه وكل مخلوقاته هو مملكة الله، الله ملكه، الله إلهه، الله ربه، الله رب الناس، الله ملك الناس، الله إله الناس، هو من يجب من يذعن له الناس أن يطيعه الناس أن يخافه الناس أن يرجوه الناس أن يتفانوا في طاعته والتسليم له، الإنسان بقدر ما يبتعد عن هذا الجانب هو يذل نفسه ويعبّدها للطاغوت ويخسر الكثير الكثير الكثير.

إن الغاية الأولى من رسالة الله ورسله إلى عباده هي تعبيد الناس لله وربطهم في كل شئونهم في كل أمور حياتهم بالله جل شأنه برحمته بحكمته بملكه هذه غاية هامة للرسل والأنبياء تعبيد الناس لله وفي نفس الوقت يترتب على هذا تحرير الناس من عبوديتهم للطاغوت، تحرير الناس من عبادة الطواغيت؛ لأن الإنسان كلّما ابتعد عن عبوديته لله فإنه يمعن في تعبيد نفسه للطاغوت، وليس حراً من جعل نفسه عبداً للطاغوت، إن الله جل شأنه يقول في القران الكريم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أمة رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللّه وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ‹النحل: ٣٦›.

لأنه هكذا لا تتحقق العبودية لله بشكل صحيح عبودية شاملة في كل شئون الحياة، طاعة كاملة في كل مجالات الحياة، لا يتحقق هذا إلا باجتناب الطاغوت؛ لأن الطاغوت سواء كان رئيساً أو ملكاً أو قائداً أو تحت أي عنوان أو يحمل أي مسمى هو يصدّ الناس عن عبادة الله ويعبدهم لنفسه ويفرض عليهم إرادة نفسه فيما يخالف الله وفيما يضر بالناس ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا﴾ ‹البقرة: ٢٥٦›.

لا يتحقق أن يعبِّد الناس أنفسهم لله ومن أساس العبادة إيثار الطاعة، الطاعة لله أن تكون فوق كل طاعة وفي كل ما أمر الله به وفي كل ما أرشد الله إليه ولا تتحقق هذه في واقع الناس إلا باجتناب الطاغوت والكفر بالطاغوت ومواجهة الطاغوت.

٢ـ تربية الإنسان ليكون بمستوى تحمل المسؤولية

من أهم الغايات في الدين وفي رسالات الله سبحانه وتعالى هي تحمل المسؤولية، تربيته الإنسان حتى يتحمل المسؤولية وليعرف

انه إنسان مسؤول له دور مهم في الحياة وأتباع الرسالة الإلهية من ينتمون للإسلام من يدّعون الإيمان لهم مسؤولية حمّلهم الله إياها وهي مسؤولية عظيمة مشرّفة يحظون من خلالها بأن يكون الله معهم وأن ينصرهم وأن يعزهم وأن يمكّنهم في أرضه، وإذا تخلوا عنها يكون نصيبهم الخذلان والضعف والعجز والوهن وتتسلط عليهم الأمم؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً أمة الرسالة، أمة محمد، أتباع محمد، المنتمين إلى دين محمد: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

هكذا أراد الله لأمة الرسالة أن تكون أمة مسؤولة آمرة لكن تأمر بالمعروف وتحقق المعروف وتسعى لإقامة المعروف واقعاً في الحياة، أمة ناهية أمة ناهية تنهى عن المنكر وتزيل المنكر وتطهر ساحتها الداخلية ومجتمعها الداخلي من المنكر ثم تنهى الأمم الأخرى عن المنكر وتصلح في عباد الله وتصلح في أرض الله، ولن يحمّل الله أمة الرسالة هذه المسؤولية ويتخلى عنهم، لا.. بل ويكون هو معهم يكون هو وليّهم يكون هو ناصرهم يكون هو من يمكّن لهم يكون هو من يقذف الرعب في قلوب أعدائهم.

٣. إصلاح الإنسان وتربيته وتأهيله

وغاية أخرى من الرسالة الإلهية هي إصلاح الإنسان وتربيته والارتقاء به وتكريمه وهدايته؛ ولذلك يذكّرنا الله بعظيم النعمة علينا - نحن العرب - حينما يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ

لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ‹الجمعة: ٢-٤›.

ولأن أمتنا في هذا العصر فقدت تفاعلها مع رسالة الله ودينه ونبيه فقد خسرت العدل، وغرقت في الظلم، وفقدت زكاء النفوس وكان البديل هو الانحطاط والسوء، وفقدت الحكمة وكان البديل هو الغباء والتخبط في المواقف والعشوائية في العمل واللغو في الكلام.

وعندما نعرف أن الغاية والهدف هو هذا العدل والخير والسعادة وزكاء النفوس والسمو بالإنسان والوصول به إلى خير الدنيا والآخرة، ونجاته من الشر في الدنيا والآخرة، نعرف أن الرسالة والدين والرسل من مظاهر رحمة الله بعباده؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ‹الأنبياء: ١٠٧›.

من رحمة الله جل وعلا أن يجعل لعباده من يربيهم التربية العظيمة فتزكو نفوسهم، وتطهر قلوبهم، وتُقَوَّم سلوكهم، وتُسَدّد أقوالهم، فيكون الإنسان على مستوى عظيم يليق بما أراد الله له أن يكون عليه، إنسان ذو قيم، ذو مُثُل، يتحلى بالجميل من الصفات والكريم من الأخلاق، فيكون الإنسان عظيماً بعيداً عن الدنس والهوان، فهذا من مظاهر رحمة الله جلَّ وعلا.

٤ـ إقامة القسط في الحياة:

من الغايات المهمة لرسالة الله إلى عباده عبر كل الرسل والأنبياء وحتى خاتمهم النبي محمد صلى الله عليه وآله إقامة القسط والعدل في الحياة.

إن من القيم الرسالية العظيمة العدل الذي هو أساس لاستقرار الحياة، وهو ركيزة أساسية في رسالات الله؛ ولذلك سعى الأنبياء العظام

على مر التاريخ لإقامته في الأرض، وتبعهم في ذلك ورثتهم الحقيقيون وأتباعهم الصادقون عبر الأجيال، وإقامته مسؤولية أساسية على الناس قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

هذا هو من أهم الأهداف التي هدفت إليها رسالة الله ومن أهم الغايات هو هذا الجانب إقامة القسط في الحياة إقامة العدل حتى يتحقق العدل في حياة الناس حتى يزول الظلم وحتى تتم هناك إزالة سيطرة الظالمين واستحكامهم على حياة الناس، هذا الجانب للأسف هو كمسؤولية فرّط الناس فيها؛ لأن رسالة الله تبقى مسؤولية على أهلها على أتباعها ليقيموها ليتحركوا على ضوئها ليقوموا بمسؤوليات عظيمة أُسندت إليهم فيها مع ذلك يكون الله معهم وينالون الشرف العظيم.

الأمم الماضية تعاملت مع أنبياء الله ورسالته بطريقة خاطئة

وقد كانت تجربة كثير من الأمم تجربة فاشلة، أودت بها إلى الهلاك والخسارة الرهيبة، وكان من أهم الأسباب ارتباط تلك الأمم بطواغيتها ومجرميها، وإعراضها عن الأنبياء وعن رسالة الله جل وعلا، مثل قوم نوح، ومثل عاد، ومثل ثمود، والفراعنة، وغيرهم من الأمم.

ففي كل مراحل التاريخ تعاملت الأممُ تجاهَ رسالة الله بطريقة خاطئة كَذَّبَتْ وتَعَنَّتَتْ وسَخِرَتْ واستهزأت وأسَاءَتْ أيَّما إسَاءَةً إلى رسل الله وأنبياءه قال الله تعالى ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وهكذا كانت أغلبية البشر تقابلُ رسالةَ الله بالتكذيبِ والرفضِ والتّعَنُّتِ، وكان من أكبر

الأسباب هو اتِّباعُ الأهواءِ والرغباتِ والشهوات، وتأثيرُ المخاوف من قوى الطاغوت، واتباعُ المترفين المستكبرين قال الله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ وكان في طليعة المكذِّبين والمحاربين لرسالة الله الملأُ وهم المتحكِّمون المُتَسلِّطون من موقع الحكم والثروة، واقتدار السُلطة والمال، والهيمنة بالظلم والطغيان قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ في قوم نوح ﴿قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِه إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ في عاد قوم هود ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ من قَوْمِه إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في ثمودَ قوم صالحَ كذلك، وقوم شعيب وغيرهم، قوى الهيمنة المتسلطةُ ترى في رسالة الله بما فيها من الحقِّ والعدلِ والخيرِ خطراً على مصالحها، وإنهاءً لِهَيْمَنَتِهَا الظالمةِ المتجبرة والمستأثرة، فتتحرك ضدَّها، ويتحرك الكثير من الضعفاء معها، بعضُهم بتأثير الأطماع، وبعضُهم بتأثير المخاوف، وبعضُهم بتأثيرِ الدِّعايةِ والتضليل، وبعضُهم بتأثيرِ العصبيةِ، وكلُّها تحتَ دائرةٍ واحدة هي الأهواء، وما أعظمَ خسارةَ الضعفاء الذين يتّبعون المستكبرين، وما أعظم حسرتَهم يومَ القيامة، حيثُ يتجلى خُسرانُهُم الفادح قال الله تعالى ﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

عجلة الحياة تسير ونكبات البشرية استمرت نتيجة البعد عن هدى الله

عجلةُ الحياة تسير دون توقف، ونكبات البشريّة وويلاتُها ومعاناتُها استمرّت كذلك نتيجةَ هذا البعد عن الهدى وعن رسالة الله ورسله وتعاليم أنبياءه، جلبت البشريةُ في معظم مراحلِ التاريخ على نفسها الشقاء، هلكت أُمَمٌ تَلْوَ أُمم وضُرِبَتْ بسخط الله بأشكالٍ وألوانٍ مِنَ العذاب، الطوفانُ والصيحةُ والزلازلُ والخسفُ، وَنَزْعُ البركات، والتسليطُ للبعض على البعض، والفتن، وغيرُ ذلك قال الله تعالى ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِه فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِه الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قليلون كانوا هم الذين آمنوا واستجابوا واتّبعوا رسالةَ الله والتزموا بتعاليم أنبياءه ودانُوا بدين الله الحق ونَهَوْا عن المنكر قال الله تعالى ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

بنو إسرائيل وتجربتهم مع رسالات الله

في مراحل التاريخ الأخيرة كانت رسالةُ الله إلى موسى وآمن به بنو إسرائيل وكان فيهمُ النبوة والكتاب وكانت تَجْرِبَتُهُمْ مع رسالةِ الله وتعاليمه على التفصيل الذي تضمنه القران الكريم بشأنهم، غلبت عليهم حالةُ الانحراف والتحريف، واضْطَهَدُوا أنبياءَهم والصّالحين منهم، حتى بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام، وكثير منهم كذبوه،

وأساءوا إليه وتآمروا عليه ، ولم ينفع فيهم ما أَيّدَهُ الله به من المعجزات، تَعَرّضَتْ شريعةُ عيسى عليه السلام للتحريف أيضاً .

وضعية العالم قبل البعثة

تعاظمت الانحرافاتُ والخرافاتُ في واقع البشريّة حتى طُمسَت معالم الحق وامتلأت الدنيا ظلما، وَسَادَها الشِّرْكُ والجهل، وانْتَشَرَت الرذائل وارتُكِبَت المآثم ، وأَطْبَقَتْ على الأرض ظلماتُ الجهلِ والضلالِ والمفاسدِ والتظالم.

كان الوضع على مستوى العالم عموما وعلى مستوى العرب خصوصا وضعا مشين حالة ضلال رهيبة وحالة ضياع حالة فرقة حالة هوان إختلاف تناحر تشتت.

وضعية العرب في الجزيرة العربية

وصلت حالة الضلال والجهل إلى أنه في الجزيرة العربية انتشرت حالة الشرك، الإبتعاد عن الله جل وعلى والشرك بأصنام أخرى سواء أصنام من الحجر وأصنام من البشر وعفلة كبيرة عن الله جل وعلى.

من حالات الجهل والتخلف التي وصل إليها العرب آنذاك أن جعلوا من أحجار ينحتونها هم بأيديهم وأحيانا أخشاب وما شابه ذلك آلهة يتضرعون إليها يقدمون لها النذور يطلبون منها النصر يستشفعون بها يطلبون منه الغوث يطلبون منها دفع الضر وهذا كان غاية في الجهل والتخلف كيف يجعلون مما يصنعونه هم بأيديهم آلهة تعبد وترجى فهذا هو بسبب مدى البعد عن الله جل وعلى الغفلة الكبيرة عن الله جل وعلى.

أما في شؤون حياتهم كان هذا في جانب معين في جانب التضرع والتذلل في جانب طلب كشف الضر دفع الضر وفي جانب الترجي للخير والحصول على الخير في شؤون حياتهم وفي تدبير أمورهم كان يتحكم بهم حفنة من الطواغيت يعني كان هناك عبودية للجهتين أصنام حجرية لها شكل معين من العبادة هو التضرع هو طلب دفع الشر ودفع الضر هو طلب الخير.

نوع آخر من العبودية في ما يتعلق بشؤون الحياة كان هذا منوط بحفنة من الطواغيت بشر مظلين مفسدين ظالمين مجرمين يلتف حولهم المجتمع ليتحكموا به وبشؤونه وبتدبير أموره وبالتنفيذ في كل قضاياه يشرعونه له ما شأوا يمنعونه مما شأوا يفرضون عليه ما يريدون حسب أهوائهم وأمزجتهم.

وهذا كان له أثر سلبي مُدَمِّر في واقع الحياة فتحولت الأمة إلى ساحة للفسق ساحة للفجور ساحة للظلم وساحة للفقر الشديد حيث أصبحت ثروات الأمة بيد تلك الحفنة من الطواغيت يستعبدون الناس ويذلونهم ويقهرونهم فكان هذا أيضا نوع من أنواع العبودية نوع من أنواع العبودية للطواغيت لأصنام البشر أصنام البشر التي تتحكم بالناس في حياتهم وفي شؤونهم وفي تدبير أمورهم.

وأما هذه الحالة التي وصل فيها مستوى التخلف إلى أن تنعدم الرحمة وتنعدم الإنسانية ينعدم الضمير وصل الحال إلى أن يقوم الرجل بقتل أبنه طفله الصغير خشية الفقر خشية الإملاق إما خوفا عليه من أن ينشأ فقيرا أو لأنه يعيش في حالة الفقر وصلت الحالة إلى أن توأد البنات خشية العار وصل الحال إلى أن يكون غذائهم في غذائهم يأكلون الميتة الميتة كالحيوانات تماما كما الكلاب كما النسور كما غيرها.

عندما يفقد الناس دين الله ويبتعدون عنه يحصل تخلف وانحطاط لدى المجتمعات البشرية فتصير في مصاف الحيوانات كالأنعام بل هم أضل.

لا يجتمعون على كلمة مفرقون قبائل متناحرة متقاتلة يقتتلون على أتفه الأمور أحيانا على سباق بين بعيرين أو بين فرسين تحصل حروب كبيرة جدا وتهدر فيها الدماء والمقدرات لدى الأمة ضياع كانت الأمة تعيش حالة من الضياع في واقع حياتها ليس لها هدف ليس لها ما يجمع كلمتها ويوحد صفها ويلم شعفها ويبنيها أمة عزيزة قوية لها قضية عظيمة.

❊ ❊ ❊

ولهذه المرحلة الختامية أتى من الله نوره الأعظم

ولهـذه المرحلة الختامية أتى من الله نـورُه الأعظم برسوله الخاتَم ورسالته الخَاتمَة وكتابه المجيد الخالد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ إنه مولدُ ومبعثُ ومجيءُ محمدِ بنِ عبد الله بنِ عبد المطلب بن هاشم في مكة البيتِ الحرام.

بعد أربعين يوماً من عذاب أصحاب الفيل الذين جاءوا لهدم الكعبة أول بيت لعبادة الله وضع في الأرض وفي يوم من أيام مكة المكرمة في الثاني عشر من ربيع الأول ولد السراج المنير، البشير النذير، ولد المبعوث رحمة للعالمين، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من ولد إسماعيل (عليه السلام)، ولد شاهداً بتوحيد الله، ولد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولد استجابةً لدعوة نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام) ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

الكون كله في فرح وسعادة وابتهاج بهذا المولود الجديد الذي تشع من وجهه الرحمة الإلهية والهيبة الربانية إنه حبيب الله اصطفاه على الناس أجمعين من خير أسرة يعيش مع أمه آمنة بنت وهب القرشية، ترضعه وترعاه في بيت سيد قريش جده عبد المطلب، تلاعبه وتناغيه وتحنو عليه، وهو يعتمد على يديه وركبتيه يحبو إليها ليرضع حتى ينام في حجرها.

محمد يعيش أيام طفولته في البادية

حين كان أهل مكة يسترضعون لأبنائهم في البادية فقد فازت وتشرفت حليمة السعدية برضاعة محمد بن عبد الله بعد سبعة أشهر من ولادته فكثرت أغنامها ورأت بركة عظيمة في نفسها ومالها، وبعد عامين رجع محمد إلى أمه آمنة في مكة يعيش معها يجري في شوارع مكة ويلعب بترابها ومع أطفالها، ويتسابقون فيسبقهم فهو يتمتع بصحة جسدية تفوقهم بكثير كما يفوقهم في أخلاقه الفاضلة إضافة إلى جمال وجهه أبيض اللون أدعج العينين أقنى الأنف سبط الشعر طويل بدون إفراط شثن الكف والقدمين إنه حقاً قمة الجمال البشري.

موت أمه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم):

وتمر الأيام والأعوام، وبينما محمد مع أمه في طريق العودة من يثرب بعد زيارة قبر أبيه عبد الله الذي مات في المدينة ومحمد لا يزال جنيناً في بطن أمه التي تحدثه عن شجاعة أبيه وكرمه وصفاته الحميدة ها هي تمرض آمنة مرضاً شديداً وتنتقل آمنة إلى جوار ربها وتدفن وقد تركت طفلها وعمره ست سنوات ليعيش يتيم الأبوين فحكمة الله تؤهله ليكون أباً للأيتام في يوم من الأيام.

فيكمل محمد الطريق مع الركب المسافر إلى مكة حزيناً لفراق أمه، ويحنو عبد المطلب بقلب الأب الحنون ليخفف أحزان محمد ويرعاه ويهتم به، وها هو يجلس في صدر المجلس بجواره وزعماء قريش من حوله، فمحمد يفهم الحديث ويميز الطيب من الخبيث، ولكن عبد المطلب يغادر الدنيا بعد أن يحث ابنه أبا طالب شقيق عبد الله على الاهتمام بمحمد الذي لا يزال في الثامنة فكان أبو طالب أكثر

اهتماماً بمحمد، فلما صار في الثانية عشرة اصطحبه إلى الشام ليتعلم فنون التجارة، وبينما هم في الطريق كانت الغمامة تسير مع القافلة لتظلل محمداً، وحين وصلت القافلة إلى مكانٍ للاستراحة كان الراهب بحيرى قد رأى الغمامة تسير مع القافلة، وتذكَّر ما جاء به عيسى (عليه السلام) من الدلائل على نبي آخر الزمان فأرسل غلامه ليدعو كل من في القافلة أن ينزلوا في ضيافته، فرحب بهم وأكرمهم ثم سأل محمداً أسئلة عنه فلم يجبه ثم سأل أبا طالب عن محمد أسئلة فأجابه أبو طالب عن أسئلته، فقال بحيرى: إنه نبي آخر الزمان فاحذروا عليه اليهود فإنه المذكور في التوراة والإنجيل، فيعمل أبو طالب بنصيحة الراهب بحيرى ويحذر على ابن أخيه من اليهود ومكرهم ويترسخ إيمانه بأن لمحمد شأناً عظيماً أكثر من قبل.

شبابه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم):

وكلما مرت الأعوام يزداد محمد تميزاً ورجاحة في العقل فكان يتأمل في الكون الفسيح فلم يعبد الأصنام ولم يفعل المنكرات، واشتهر في قومه بالصادق الأمين والأخلاق الفاضلة فاختارته خديجة بنت خويلد للتجارة في مالها ثم للزواج منها، خديجة ذات المال والجمال والجاه والعقل، خديجة التي ترفض زعماء قريش وتختار محمداً.

ولأن محمداً بحاجة في علم الله إلى من يشد أزره في قابل الأيام ويواصل مسيرة الهداية من بعده فقد اختارت عناية الله ابن عمه علي ليكون رفيق دربه وتلميذه الوفي المخلص.

ولأن هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاص فقد تم تأهيله في مدرسة خاصة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم فكان الإسلام مدرسة علي وكان

رسول الله محمد - (صلوات الله عليه وعلى آله) - مُعَلِّمَهُ ومربيه.

هكذا أراد الله أن ينضمَّ علي إلى أسرة رسول الله؛ فيكون تحت رعايته، ويعيش في حجره، يتنسم عطر النبوة، ويشم عَرْف الرسالة، ويتبعه في كل أفعاله وأعماله وخصائصه ومميزاته، حتى أضحى ظل النبي الذي لا يفارقه، وربيبه الذي لا ينفك عنه. ورثه في جميع خصاله النفسية والدينية.

الصادق الأمين:

هكذا عرف بين قومه بـ (الصادق الأمين) إنه ابن سادة قريش هاشم وعبد المطلب وأبي طالب، إنه الحكيم الذي أصلح بين قبائل قريش حين كادت تقتتل عند إعادة بناء الكعبة الشريفة حين وصل البناء إلى الحجر الأسود واختلفت قبائل مكة على من يضع الحجر الأسود في موضعه، في حين كان يقف الجبابرة الأشرار أكابر قريش من بني أمية ينشرون الفساد ويسعون إلى إثارة الحروب والفتن، لقد وقف محمد بحكمته العالية بعد أن تراضوا به حكماً وقال: «**هذا ردائي ضعوا الحجر فوقه وليمسك كل كبير قبيلة بطرف من الثوب ولترفعوه جميعاً**» فأعجب أهل مكة بهذا الصلح الذي حافظ على أرواحهم ودمائهم وجنبهم الحرب فيما بينهم.

❊ ❊ ❊

نزول الوحي عليه بالرسالة الخاتمة

كان كلما ازداد محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) رفعة وشرفاً ومكانة في قومه كان يزداد تواضعاً لهم وعطفاً عليهم ورحمة بهم، حتى إذا بلغ الأربعين من العمر حين كان في غار حراء كعادته لعبادة الله على دين إبراهيم (عليه السلام) ويتأمل في خلق السموات والأرض ويتألم على حلول الجاهلية محل الدين الحنيف دين إبراهيم الخليل جاءه الروح الأمين جبريل (عليه السلام) ملك الوحي إلى رسل الله (عليهم صلوات الله وسلامه) مبلغاً له برسالة من رب العالمين بدأت بسورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾ ‹الفاتحة›.

محمد هو الرحمة المهداة:

وهكذا بعث الله نبيه محمداً خاتم الانباء والمرسلين بعثه برسالة الخاتمة بعثه بالاسلام ديناً عظيماً هذا الدين القويم هو إرث الانباء هو خلاصة رسالتهم القران الكريم هو يمثل الوثيقة الالهية التي تضمنت محتوى كتب الله السابقة بعث الله نبيه محمد على فترة من الرسل في ظل جاهلة جهلاء اطبقت ظلماتها على الأرض فعمّ في هذا الدينا الجهل والظلم والشر والفساد والطغيان وتنصلت البشرية لتعاليم الله التي اتت في السابق عن طريق انبيائه ورسله وكتبه واصبح واقع البشرية واقعاً سيئاً جداً انحط الانسان فيه عن انسانيته كثيراً وكثيراً وكثيراً.

فكان محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) رحمة للعالمين بعثه بالنور والهدى ليعيد للانسانية انسانيتها ليعيد لها كرامتها واعتبارها ليأخذ بهذا الانسان ويضيء له الطريق ليؤدي دوره في هذه الحياة كخليفة لله في أرضه بما ينبغي ان يكون عليه هذا الانسان سمواً وكرامةً وقيماً واخلاقاً ومبادئ ليعمر هذه الحياة وهو يحمل تلك القيم والمبادئ فيكون وجودهُ في هذه الحياة يحقق له ما اراده الله له من الخير والسعادة في الدينا والآخرة.

فالنبي صلوات الله عليه وعلى اله بُعث في محيط وبيئة شأنها شأن بقية العالم غارقة في الكفر والشرك والظلم والفساد ومفاسد الجاهلية بكل اشكالها وعادتها السيئة في مكة بالرغم من قداسة مكة بالرغم من وجود بيت الله الحرام فيها لكن مع كل ذلك كان المجتمع في مكة شأنه الى حدٍ كبير شأن سائر المجتمعات البشرية في بقية انحاء المعمورة آن ذاك، لديه كل الامراض كل المثالب كل المساوئ والكل في كل بقاع الارض كانوا في حاجة ملحة وماسة إلى رحمة الله سبحانه وتعالى وهدايته ونوره فمثلت الرسالةٍ الالهية على يد خاتم الانبياء محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) رحمة وخيراً وشرفاً للعرب جمعا للعالمين اجمع وعندما تحرك النبي صلوات الله عليه وعلى اله برسالة الله سبحانه وتعالى صادعاً لأمر الله يحمل للبشر جميعاً ما تحمله الانبياء من الخير ومن إراداة الهداية والحرص على هداية الناس وارادة الخير للناس والعناية والاهتمام البالغ بأمر الناس وسعادة الناس والسعي الدءوب الى تغيير واقعهم نحو الافضل واعادتهم الى الصراط المستقيم والمنهج القويم.

مع هذه الظلمات مع هذا الضلال وهذا الضياع وهذا الجهل جاءت رحمة الله وارادته لاستنقاذ هذه الأمة ولتغيير واقعها ولإصلاحها لتتحمل مسؤولية عظيمة يكون لها أثر كبير تغير واقع حياتها ويكون على ذلك فلاحها وعزتها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

في ظل وضع عالمي سَاقط صدع رسول الله بالحق مبلغا لرسالة الله

وهكذا في ظل وضع عالمي سَاقط تحت هيمنة الوثنية والشرك، والخرافة والجهل والضلال المبين، بكل ما تعنيه مفردة الضلال ككلمة شاملة، ووصف يتسعُ لكلِّ مفردات التعبير عن الحالة القائمة آنذاك من شركٍ وكفر وفساد وظلم وانعدام للهدف، وضياع بكل ما تعنيه الكلمة ، صَدَعَ بالحق مبلغا لرسالة الله ، جامعًا بين الرحمة العظيمة للناس والحرص على إنقاذهم - مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وما أعظم هذا الوصف فيما يفيده من الهداية والنور الذي كان عليه رسول الله منيرا به للعالمين - وبين الثقة بالله والتوكل عليه لمواجهة التحديات والأخطار والصعوبات الهائلة وبقوّة الإيمان وبنور الهداية الإلهية ثبت مستبصرا على بينة من ربه في مواجهة قُوى الطغيان والضلال التي تحركت لمواجهته بكلِّ همجيتها وإجرامها ووحشيتها وإمكاناتها الهائلة مشركي العرب، واليهود، والروم الذين كانوا قوةً عالمية لكنها كلُّها باءت بالفشل ، وشق الإسلام طريقه والنورُ بَدَّدَ الظلمات المتراكمة الكثيفة وصولاً إلى النصر والفتح المبين ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وما أعظم النور الذي تحرك به لإخراج الناس من الظلمات ، إنه القرآن الكريم قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

لقد كان خروج الناس من الظلمات هو من خلال خَلاَصهم من تلك الخرافاتِ والجهالات والعقائد الباطلة، والأفكارِ المسممة، والمفاهيمَ المغلوطة، والتصورات الزائفة الظلامية إلى نور القرآن بثقافته العظيمة المحقّة ومفاهيمه الصحيحة، وتعليماته التي تُصْلحُ الإنسانَ وتصلح الحياة، ورؤيتهِ الواسعة الشاملة الهادية البنَّاءة.

أتى الرسول محمد (صلى اللّه عليه وآله وسلم) في إطار المشروع الإلهي:

رسل الله (صلوات الله عليهم) أرسلهم الله رحمة للناس، وحجة على الناس، وفي نفس الوقت أتى الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الإطار، في إطار المشروع الإلهي ألا يترك العباد هملاً، ألا يتركهم في حيرة من أمرهم، في اضطراب، في حيرة، في تردد، في ضلال، في شقاء وهوان.

الرسول (صلى الله عليه وآله) علمه الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ﴾ ‹الأحقاف: من الآية٩› ما كنت بدعاً من الرسل، هو ضمن سلسلة من الأنبياء والرسل، فحين وُجِد الإنسان، منذ وجود الإنسان الأول آدم (عليه السلام) وُجِد هدى الله، وُجِد وحي الله، وُجِدت تعاليم الله، أتى هذا الإنسان إلى الأرض وأتت معه تعاليم الله التي إن اتبعها يسلم من الضلال، ويسلم من الشقاء، وعندما لا يتبع تعاليم الله التي هي هدى يشقى ويعاني ويخسر ويعرض نفسه لعذاب الله وبأس الله وسطوة الله.

والله يصطفي، يصطفي من عباده رسلاً كما قال جل وعلا: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ ‹الحج: من الآية ٧٥› وأن يصطفي

يؤهل، يخلق، يصنع، يؤهل، يجعل رجلاً مخصصاً لهذه المسؤولية، يُعدُّه لهذه المسؤولية كما قال عن موسى (عليه السلام): ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾‹طه:الآية٤١› يجعله فيما هو عليه من نفسيات عظيمة، بحيث يكون جديراً بهذه المسؤولية، فيبلغ رسالات الله - على أكمل مستوى - بلاغاً مبيناً، ثم يكون هو في الواقع العملي، وفي التطبيق يمثل القدوة العظيمة لتطبيق دين الله، وأداء التعاليم في واقع العمل والحياة، وفي واقع الالتزام.

فلذلك الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اصطفاه الله رجلاً عظيماً جديراً بالمسؤولية الكبيرة، مسؤولية أن يكون رسولاً يبلغ رسالات الله، وقدوة في تطبيق تعاليم الله والقيام بها في مهمة واضحة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾‹الأنبياء:الآية١٠٧› هو مظهر من مظاهر رحمة الله، من رحمة الله أن يقدم لعباده التعاليم التي إن اتبعوها عاشوا حياة عزيزة، وعاشوا حياة كريمة، وعاشوا بعيداً عن الهوان والشقاء.

جاء بمشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور:

جاءت الرسالة الإلهية شاملة لمكارم الأخلاق وتزكية الإنسان ليكون عنصر خير في الحياة، وليقوم بمسؤوليته في الأرض على أساس تلك الأخلاق والقيم، والرسالة الإلهية هي: مشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور من خلال الرسول والقرآن لأن الله جل شأنه رحمة منه بعباده وتكريماً لهم يستنقذهم من ظلمات الجهل وظلمات الضلال والخداع وظلمات الباطل بنوره الذي يكشف الحقائق ويبدد كل الظلمات قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاة فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَة الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَة مُّبَارَكَة زَيْتُونَة لَّا شَرْقِيَّة وَلَا غَرْبِيَّة يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ولذلك فمن أعظم مظاهر رحمة الله وتكريمه لعباده أن جعل لهم من نوره ما يكشف تضليل وأباطيل وخداع الظلاميين المضلين المخادعين، فكما جعل الشمس سراجاً وهاجاً منيراً كونياً تستفيد منه البشرية من نورها ودفئها وترى ما غطاه الظلام كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ جعل الرسالة والرسول نوراً للقلوب وكاشفاً لظلمات الضلال، منيراً للهدى والحق والحقيقة كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ وبالقرآن الكريم تحرك الرسول (صلى الله عليه وآله) لإخراج الناس من الظلمات بتصحيح العقائد الباطلة والمفاهيم المغلوطة الظلامية إلى رحابة وضياء النور والهدى والحق كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

اصطفاه اللّه ومنحه المؤهلات العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليته العالمية:

لقد ختم الله رسالته بعد سلسلة طويلة من الرسل، عشرات الآلاف من الأنبياء والرسل برسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وعلى آله، رسولاً ونبياً إلى العالمين، في المرحلة الأخيرة والحقبة المتبقية لحياة البشرية، واقتراب الساعة، وقد اصطفاه الله ومنحه المؤهلات

العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليته العالمية زكاءً عظيماً، وخلقاً عالياً، فكان أعظم وأنجح قائد عرفه التاريخ، رسولاً حكيماً بما منحه الله من الحكمة، ورحيماً وحريصاً على هداية الناس وسعادتهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ‹التوبة: ١٢٨›.

رسول يحمل الرحمة لهذه الأمة، ويعز عليه أن يلحق بها أي ضرر، كل سعيه كل جهده كل اهتمامه فيما يفيد هذه الأمة، فيما يدفع عن هذه الأمة الشر، إرشاداته كذلك هي على هذا النحو، ويحمل الرحمة وبالرحمة يتحرك في أمته مرشداً وهادياً ومربياً، يحمل الحرص الكبير والتألم على واقع البشر، يحرص على أن يهتدوا وأن يؤمنوا وأن يفلحوا، ويحرص على نجاتهم؛ ولذلك قال الله عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ‹الشعراء: ٣›.

لم يكن الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) متجبراً على أمته، بل يعامل أمته على أساس الخير والرحمة، وعلى أساس الحرص على ما فيه صلاحها وسعادتها، ويتحرك على أساس هذه القيم وبهذه الروح كرحمة من الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ ‹آل عمران: ١٥٩›، وفي نفس الوقت يتحرك في مواجهة الأشرار، وفي مواجهة الطاغوت، وفي مواجهة الظالمين والمفسدين، يتحرك بعزيمة عظيمة وبعزة قال عنها الله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ‹المنافقون: ٨› ولرسوله.

فمحمد ذلك الرجل العظيم الرحيم الكريم كان عزيزاً يأبى أن يخضع لباطل، ويأبى أن يُذَل، ويأبى لأمته أن تذل، وربى أمته على

أساس العزة ومفاهيم العزة، ألاَّ يكون لديها القابلية للإذلال والقهر والاستعباد، فتحرك تحت راية الله، لم يتحرك في حروبه لا ظالماً ولا متجبراً ولا مستكبراً ولا طاغياً، حمل راية الله، وتحرك على أساس العدل، ولأجل الحق، وبالحق قاتل، وبالحق تحرك، وواجه الطاغوت عند العرب وعند اليهود وعند النصارى، وخاض المعارك تلو المعارك، وحرَّك فرق الجيش الإسلامي في السرايا والغزوات والحروب حتى رست راية الحق، وتحقق العدل، وعمَّ الخير، وانتشر نور الله؛ فأصبح واقع أمتنا العربية واقعاً عظيماً، أمة استبدلت من الذل العز، أصبحت أمة عزيزة، وأمة كريمة، وأمة لها قضية عظيمة، ولها مشروع عظيم يوصلها بالله ويكسبها رضوان الله، ويوصلها إلى جنة الله.

هكذا كانت حركة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهكذا كان وهو في موقع قيادة الأمة، لا متجبراً ولا ظالماً ولا طاغياً، وتحرك كعبد لله.

عندما كان قائداً للأمة ومصحوباً بالنصر الإلهي، ومسدداً من عند الله لم يكن همه أن يستعبد الناس، ولا أن يفرض عليهم إرادة شخصية، أو أن يفرض عليهم هوىً من نفسه كان يقول كما علمه الله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ‹الأحقاف: ٩› وتلقى تعليمات الله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ‹هود: ١١٢›، وتقبل تعليمات الله التي تقول له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلا﴾ ‹الأحزاب:١-٣›، هذه بعض الجوانب بأخلاقه وصفاته، وإلا فالحديث عنه حديث يرتبط بكل هذا الدين؛ لأن هذا الدين يربطنا به في كل مجال من مجالات الحياة.

وبتلك المؤهلات التي أوصلته إلى منتهى الكمال البشري نهض قائماً بمسؤوليته العالمية التي يترتب عليها سعادة البشرية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾‹الأنبياء:١٠٧› وبالحق ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾‹البقرة:١١٩› يهدي إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾‹الشورى:٥٢›.

لقد كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة:

كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة وبحجم المهمة المكلّف بها في مستوى المسؤولية وفي مستوى مواجهة كل التحديات عظيماً وعلى خلق عظيم، قال الله عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ‹القلم:٤›في أوجز وأوسع وأدق وأشمل وأعظم تعريف بالنبي الخاتم اشتمل على كل مكارم الأخلاق وحميد الصفات بأعظم وأكمل ما يمكن أن يصل إليه البشر، وبما لم يصل إليه من البشر سواه.

في عبوديته لله حظي باختصاص في مستوى تعبيد نفسه لله فكان أن تكرر الثناء عليه في القرآن بذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ‹الكهف:١› ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ ‹الأنفال:٤١›.

عظيم في صبره العظيم لحمل الرسالة، ومواجهة العالم بكله من حوله، ومواجهة التحديات الهائلة ومواجهة التصلب والتعنت الجاهلية الجهلاء، عظيم في صدقه، وهو أصدق البشرية، عظيم في طهارته وهو أطهر الخلق، عظيم في أمانته حتى سُمّي بـ(الأمين)، عظيم في شجاعته وهو الذي لم يرعه أن تضافرت كل قوى الشرك والكفر والطغيان على مواجهته بكل قواها وإمكاناتها، عظيم في رحمته للناس، وحرصه

الكبيـر الكبيـر علـى هدايتهم حتـى تميّز في ذلـك وفاق بـه كل الأنبياء، وحتـى قال الله لـه مواسياً: ﴿لَعَلَّـكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ﴾ ‹الشعراء:٣› إنه محمد رسول الله.

﴿لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِـنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّـمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُـمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ‹التوبـة:١٢٨› بهذه الصفات المهمة التي يتضـح مـن خلالها عظـم اهتمامه بأمر الناس وحرصـه الصادق الكبير علـى سعادتهـم ودفـع كل الشر والسوء عنهـم، وتحقيق الخيـر والسعادة لهـم، بـكل رأفة ورحمة، عظيم هو وعظمته وسمّـوه بعظمة تلك المبادئ والقِيَـم والأخـلاق هي ذاتها التي لم تعد البشريـة تعطيها قيمة وأهمية كما ينبغي، بينما الرسول يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وفي ظل وضع عالمي ساقط تحت هيمنة الوثنية والشرك، والخرافة والجهـل والضلال المبين، بكل ما تعنيـه مفردة الضلال ككلمة شاملة، ووصـف يتسع لـكل مفردات التعبير عن الحالة القائمة آنذاك من شرك وكفر وفساد وظلم وانعدام للهدف، وضياع بكل ما تعنيه الكلمة.

صـدع بالحق مبلّغـاً لرسالة الله جامعاً بين الرحمـة العظيمة للناس والحـرص علـى إنقاذهـم، مبشراً ونذيـراً، وداعياً إلـى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ومـا أعظم هذا الوصف ﴿سِرَاجًـا مُنِيرًا﴾ ‹الأحـزاب:٤٦› فيما يفيده من الهدايـة والنـور الـذي كان عليه رسـول الله منيـراً فيه للعالميـن، وبين الثقـة بالله والتوكل عليـه لمواجهة كل التحديات والأخطار والصعوبات الهائلـة، وبقـوة الإيمان وبنور الهداية الإلهية ثبـت مُستبصراً على بيّنة مـن ربّـه في مواجهـة قوى الطغيـان والضلال التي تحركـت لمواجهته بـكل همجيتها وإجرامها ووحشيتهـا وإمكاناتها الهائلة، مشركي العرب،

واليهـود، والروم التـي كانت قوة عالمية، لكنها كلها بـاءت بالفشل، وشَقّ الإسـلام طريقه، والنور بَدّد كل الظلمات المتراكمة الكثيفة وصولاً إلى النصر والفتح المُبين قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ‹التوبة:٣٣› وما أعظـم النـور الذي تحرك فيـه لإخراج النـاس من الظلمات، إنـه القرآن الكريـم قـال الله تعالـى: ﴿الر كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ‹إبراهيم:١›.

لقـد كان خـروج الناس من الظلمات هو من خلال خلاصهم من تلك الخرافـات والجهـالات والعقائد الباطلة، والأفـكار المسممة والمفاهيم المغلوطـة والتطـورات الزائفـة الظلاميـة، إلـى نـور القـرآن بثقافتـه العظيمة، ومفاهيمه المحقة والصحيحة، وتعليماته التي تصلح الإنسان وتصلح الحياة ورؤيته الواسعة الشاملة الهادية إلى الله.

الرسول هو نعمة على العرب قبل غيرهم من الأمم:

وقـد عظمـت منـة الله به على العـرب قبل غيرهم مـن الأمم قال الله تعالـى: ﴿هُوَ الَّـذِي بَعَثَ فِـي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِـمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِـمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْـلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ‹الجمعة:٢-٣› يعني الأجيال اللاحقة التـي لـم تكن قـد وجدت، ومنهـا جيلنـا وعصرنـا، ﴿وَآخَرِيـنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُـوا بِهِـمْ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَـن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ‹الجمعة:٣-٤›.

فظـل الله ورحمته أتت إلى هذه الأمة إلى الأميين العرب لتغير واقع حياتهـم لترفعهـم مـن ساحـة الفسق والفجـور والخمر والزنـاء والقتل

والتناحر وأكل الميتة ووأد البنات وقتل الأطفال إلى أمة طاهرة لا يوجد فيها مجال لا للفسق ولا للفجور أمة مقدسة أمة نظيفة أمة صالحة أمة زكية النفوس وزكية السلوك وطاهرة القلوب وأمة يصلح واقعها لأن هذا الدين هو دين من تمسك به يعتز ويرتفع ويكون موصولا بالله.

وقد بذل (صلى الله عليه وعلى آله) كل جهده في تغيير الواقع السيئ الذي كان يعيشه العرب الأميون والعالم آنذاك، وهو واقع طغى عليه الجهل والخرافة والشرك والكفر والفساد والرذيلة والنهب والسرقة والتفرق، يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويشربون الخمر، ويئدون البنات، ويمتهنون النساء، ويرتكبون الفواحش، ويأكل القوي منهم الضعيف في جاهلية جهلاء وضلال مبين وضياع للحياة، لا هدف ولا مبادئ، على شفا حفرة من النار.

إن دين الله هو صلة به صلة ما بين الله وبين عبادة وعلى أساسه يمنح الناس عزا وخيرا وفلاحا وخيرا كثير في واقع حياتهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ‹الأعراف٩٦› من السماء والأرض.

عندما أتى رسول الله محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) بعث في عالم هكذا حاله عالم مليء بالضلال بالفسق بالفجور بالتخلف بالطغيان بالضياع أمة ومجتمعات ليس لها اهتمام بأي شيء مهم ضائعة ضائعة تماما متفرقة متناحرة ليس لها دين ولا دينيا ليس لها حاضر وليس لها مستقبل ضائعة تماما فكانت رحمة الله بهذا الرجل العظيم برسالته العظيمة دين الله العظيم والقرآن المجيد.

الرسول بعث معلماً ومربياً لأمته:

حينما بعث الله فينا نحن الأميين، نحن العرب، حينما بعث الله فينا ومنا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) رسولاً له مهمة كلفه الله بها، منوطة بنا هي لنا، رسول لنا لخدمتنا، يعمل من أجلنا، كلما لديه، كلما يقدمه لنا ومن أجلنا، ﴿يتلو عليهم آياته﴾، آيات الله التي تمنحنا الوعي، وتمنحنا البصيرة، فلا يستطيع أحد أن يضلنا، ولا يستطيع أحد أن يخدعنا، ولا يتمكن أحد من إفسادنا طالما تحلينا بذلك الوعي وهاتيك البصيرة ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ونحن محتاجون إلى الزكاء، الإنسان يحتاج إلى زكاء نفسه كي يكون من الأبرار، وعنصراً صالحاً في الدنيا، يقوم بدور عظيم يترتب عليه فلاحه وخيره وفوزه في الدنيا والآخرة.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأيضاً معلماً، رسول الله من مهامه تجاهنا أن يكون معلماً لنا، يعلمنا كتاب الله الحكيم، كتاب الله الكريم، كتاب الله الذي يتضمن التعاليم العظيمة، التي إن أخذنا بها نسعد في الدنيا والآخرة ونسلم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ونعيش في عزة وسعادة ويكون مصيرنا إلى خير في الآخرة أيضاً، معلم، معلم، يعلم كتاب الله، ويعلم هذه الأمة الحكمة لتكون أمة حكيمة، حكيمة في مواقفها، حكيمة في سلوكها، حكيمة في أعمالها، حكيمة في إدارة شؤون حياتها، حكيمة في مواجهتها مع أعدائها، تصرفاتها حكيمة، ومواقفها حكيمة، وأعمالها حكيمة. هذا هو الرسول، وهذا هو مشروعه للأمة أولها ولاحقها، سابقها وآخرها، رسول الله هو لهذه المهمة؛ لأن يكون لنا معلماً لنا، مربياً لنا، قائداً لنا، مصلحاً لنا، يحل مشاكلنا، يزكي أنفسنا، يقودنا إلى حيث الخير، إلى

حيث الرشاد، إلى حيث العزة، إلى حيث المجد، إلى حيث الفلاح، إلى السعادة، يشدنا نحو الله، ويصلنا بالله بما يكسبنا رضوان الله، وتوفيق الله، وعون الله، ونصر الله، رسول يتكفل بهذه المهمة لهذه الأمة، السابقين منهم واللاحقين ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

إذاً هذا يمثل فضلاً من الله علينا لنعرف هذا، رسول الله حينما بعث الله فينا رسولاً منا، هذا يعتبر فضلاً من الله علينا نحن، منة من الله علينا نحن، فحينما قال الله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذا من أعظم ما أكرمنا الله به أن يجعل منا رسولاً، رسولاً له هذه القيم، وهذه التعاليم، وهذه المهام العظيمة؛ لكي نكون نحن خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونسود فوق الأمم الأخرى، وننهض بمسؤولية هي شرف كبير لنا، فالرسول منا فضل من الله علينا، وهو في نفس الوقت منة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(آل عمران:الآية١٦٤) حتى لا نكون أمة ضائعة، أمة تعيش دون هدف، ضائعة في كل مجال من مجالات الحياة، ثم يكون مصيرها إلى جهنم والعياذ بالله، فهذه منة، مَنَّ الله، ذلك فضل الله، شرف كبير أنعم الله به علينا، حين نعرف أن الرسول محمد هو منة من الله علينا وفضل علينا وشرف كبير لنا، وأنه من أعظم ما قدمه الله لنا، أعظم من كل النعم المادية التي لا يصبح لها أي قيمة مع الشقاء ومع الضلال ومع البعد عن هدى الله جل شأنه.

❊ ❊ ❊

مكة المكرمة بداية المشوار

حينما بعث رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بعث في مجتمع يبدأ منه المشوار هذا المجتمع هو مكة ومكة كانت بقعة مقدسة لأن فيهما بيت الله الحرام والكعبة المشرفة وهي البقعة الأساسية التي استوطنها إسماعيل أبن نبي الله إبراهيم صلوات الله عليهما.

جاء محمد في تلك البقعة تلك البقعة كانت أيضا قد سيطر عليها الشرك والضلال والفساد مثل ما سائر العالم العربي والعالم بكله آنذاك جاء الرسول وبدأ مشواره من هناك وبما أن هذا الدين هذا الدين هو استنقاذ للإنسان وصلاحه وفلاحة واستنقاذ الناس من العبودية لغير الله سواء أصنام الحجر أو أصنام البشر.

فقد عمل على استنقاذ الناس من العبودية للطواغيت والمجرمين والمفسدين والمضلين الذين يتعاملون مع عباد الله بالإذلال والاستعباد والإهانة لا يهمهم أمر الناس ولا خير الناس ولا ما فيه مصلحة الناس أبداً.

طواغيت مكة في مواجهة المشروع الإلهي:

الطواغيت عادة ما يكونون أنانيون مستكبرون تحل فيهم روح الإجرام وروح الأنانية والاستكبار والغرور فيجعلون من الناس مجرد خدم لهم وعبيد لهم يسخرونهم لتحقيق مصالحهم الخاصة.

ولأن المشروع الإسلامي مشروع رحمة للناس يستنقذ المستضعفين ويبني مجتمعا عزيزا كريما عظيما ولأن المشروع الإسلامي في نفس الوقت ضد الظلم وضد الباطل ضد الطغيان ضد الإجرام والمجرمين

فقد أثار حفيظة الطغاة وأثار حفيظة المجرمين والمستكبرين فعملوا بكل جهد لمواجهة نبي الله محمد ووقفوا بوجهه بكل وسيلة وبكل إسلوب بعمل جاد ومتواصل لوأد هذا المشروع وللقضاء على هذا الرجل ورسالته الإلهية فقد عملوا بكل جهد مثلما قال الله جل وعلى في شرح واقعهم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ ‹ص٤-٦› الملأ منهم كبارهم والمتنفذون فيهم من لهم السلطان والنفوذ أو الثروة والمال انطلقوا في محاربة هذا المشروع الإلهي العظيم ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾‹ص٦› لأنهم كانوا يجعلون من الشرك وسيلة للنفوذ واستعباد الناس من دون الله جل وعلى (أن امشوا) تحركوا في مواجهة هذا المشروع لا تسكتوا عنه لا تقفوا أمامه أمشوا تحركوا واعملوا ضده بكل ما يمكن واصبروا على ألهتكم تحركوا في مواجهة هذا الرجل الذي ينسف حالة الشرك والاستعباد لغير الله بصبر ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ ‹ص٧-٦›.

بدأوا في مواجهة المشروع الإلهي الذي يهدف إلى تزكية هذه الأمة ومشروع في واقعه الشيء الصحيح الشيء الطبيعي أن تتقبل الأمة هذا المشروع أن تستجيب لله لأنه مشروع خير لهذه الأمة دين الله هو لخير هذه الأمة لصلاحها هي لتزكيتها هي لمجدها هي وعزتها هي مثلما يقول الله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ‹الزخرف٤٤›.

شرف كبير لك وشرف كبير أيضا لقومك لأن فيه مجد قومك وعزتهم وقيامهم وحياتهم وسعادتهم وسيادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة وإبعادهم عن الذل والقهر والهوان والانحطاط.

لذلك هذا المشروع الإلهي الذي يهدف لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور كان الشيء الطبيعي أن يقبل أن يتبع أن يستجاب له.

لكن أولئك الطواغيت والجبابرة أمثال أبو جهل وغير أبو جهل وأمثالهم كثير من أصحاب النفوذ فقد كانوا يرون في دين الله وتحرير العباد من هيمنتهم وطغيانهم يرون في ذلك خطر عليهم كما يرون فيه مشروعا يهدد ما يقوم كيانهم عليه من ظلم وطغيان ونهب وغير ذلك.

تحركوا في مواجهة هذا المشروع بداية بالشائعات والأكاذيب قالوا عن الرسول أنه ساحر وأن التأثير الذي لهدى الله ولآيات الله ولكلام الله على قلوب الناس ومشاعرهم وعلى نفوسهم سموه سحرا وحركوا هذه الشائعة في المجتمع ليصدوا المجتمع حتى عن اتباع الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) والاستجابة له.

قالوا عنه كذاب وإنما يقوله كذب وأنه ليس رسول من عند الله وأن القرآن ليس كتاب الله، قالوا عنه مجنون ومختل عقليا ولديه مشاريع غريبة وأفكار غريبة، قالوا فيه شاعر نتربص به ريب المنون.

تحركوا في أوساط المجتمع بهذه الشائعات وبشكل كبير ومكثف ونشاط كبير لكنهم لم يفلحوا لذلك ولم يتحقق لهم مأربهم من إيقاف هذه الدعوة. واجهوا النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) بالتكذيب والعداء وإثارة المجتمع ضده لكنهم لم يفلحوا في القضاء على هذه الرسالة العظيمة.

استمر رسول الله محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) صابرا محتسبا ثابتا مبلغا رسالات ربه صادعا بالحق لا يبالي بأنه وحيد في هذه الأرض وبدأ مشواره وحيدا وفيما بعد استجاب له فئة قليلة من الناس

لـم يوحشـه ذلك توكل علـى الله وصدع بأمر الله وصبـر وصابر واستمر فـي تذكيـر عباد الله برحمـة رحمة كبيرة إلى حد أنه مـن شدة الحرص علـى هدايـة الناس وهو يرى الخطـر الكبير عليهم في عـدم الاستجابة لله والخسـارة الكبيـرة عليهم تأخذه الحسـرة الكبيرة على الناس والألم الشديـد إلـى حـد أن يقول الله: ﴿فَلَعَلَّـكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَـى آثَارِهِمْ إِن لَّـمْ يُؤْمِنُـوا بِهَذَا الْحَدِيـثِ أَسَفاً ﴾‹الكهف٦› تـكاد أن تقتل نفسـك تكاد أن تخنق نفسك من الهم والحزن والأسف على هؤلاء كيف لا يهتدون كيف يعرضون عما هو خير لهم عما هو عزة لهم عما هو شرف كبير لهم عما في فلاحهم ومستقبلهم في الدنيا والآخرة.

استمـرت هـذه الحالـة مـن الصراع بشـكل إعلامـي واستغـل أولئك المتنفـذون والطغـاة والجبابـرة نفوذهـم لـدى الناس لصـد الناس عن سبيل الله وعن الاستجابة فكانت الاستجابة في داخل مكة عبارة عن فئة قليلة من المستضعفين استجابوا للرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وأسلمـوا وانطلقـوا مـع الله وفي سبيـل الله وكانت قضيـة الإسلام تعني تجنـدا كانـت مسألة أن تنظم أن تسلم معنـاه أنك صرت جنديا لخدمة هذه الرسالة العظيمة الإسلام والاقامة هذا الدين.

تحـرك أولئـك المؤمنون وهـم قلة لكنهم صابـرون وثابتون رغم كل المعاناة الشديدة: القهر الظلم لهم والمحاولة دائمة لصدهم وإبعادهم عن الحق.

واستمر رسول الله محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) مبلغا لرسالة الله عامـلا علـى هداية النـاس وإنقاذهم وتحريرهم مـن العبودية لغير الله جـل وعلـى حتـى وصل الحال بعـد ثلاثة عشرة سنة فـي مكة إلى أن يحصل تآمر كبير لهدف تصفيته أو القضاء عليه بأي طريقة.

وهـذه حالـة مـن العجز هـذا الحالـة من العجـز عليهـا كل طواغيت الأرض قبـل رسول الله وفي عصـره وبعد عصره يعجـزون عن مواجهة هدى الله لأن هدى الله قوي والحق قوي والباطل زهوق والباطل ضعيف وأمام القدرة البيانية للحق ووضوح الحق وصدوع الحق يتحول الباطل عندمـا يعجـز ويفشـل في مواجهة الحـق يعجز عن الحجـة وعن البيان يلجـئ إلـى محـاولات أخرى إلـى القوة لمنع الحـق وتصفيتـه والقضاء عليه.

***

بعض الأحداث التي جرت في مكة خلال ثلاث عشر سنة

وأنذر عشيرتك الأقربين:

كان القرآن الكريم في كل يوم يهز عرش قريش هزاً عنيفاً وقريش تكابر وتتظاهر بعدم اكتراثها وتستهزئ برسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ومن آمن به ولكن الخوف قد بدأ في قلوبهم.

جبريل (عليه السلام) ينزل بقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ‹الشعراء: ٢١٤› ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ‹الحجر: ٩٤›.

الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) لبني هاشم وهم في ضيافته في بيته: «**أيها العشيرة ما أعلم أن أحداً قد جاءكم بمثل ما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟**».

علي (عليه السلام): أنا يا رسول الله أنا عونك أحارب من حاربت.

بنو هاشم انصرفوا مستهزئين وقالوا: ألهذا دعوتنا.

ولكن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في الصباح يذهب إلى الصفا ليدعو قريشاً كلها.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فوق الصفا: «**يا معشر قريش.. يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني**».

قالوا: نعم. أنت عندنا غير متهم.

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

يـا بنـي عبد المطلب يا بني عبد مناف، يا بنـي زهرة، يا بني تميم، يا بنـي مخـزوم، يا بني أسد إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله.

أبو لهب: تبأ لك، ألهذا جمعتنا.

جبريـل (عليـه السلام): بسـم الله الرحمن الرحيم ﴿تَبَّـتْ يَدَا أَبِي لَهَـبٍ وَتَـبَّ (١) مَـا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَـا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَـى نَارًا ذَاتَ لَهَـبٍ (٣) وَامْرَأَتُـهُ حَمَّالَـةَ الْحَطَبِ (٤) فِـي جِيدِهَا حَبْـلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ ‹سورة المسد›.

تشاور الطواغيت وقرروا الذهاب إلى أبي طالب.

أحدهـم: يـا عبد مناف يا أبا طالب إن ابـن أخيك يسب آلهتنا ويسفه أحلامنـا.. فـإن كان يريـد ملـكاً جعلنـاه ملـكاً علينـا وإن كان يريـد مالاً جعلناه أكثر مالاً.

محمـد (صلوات الله عليه وعلى آله) يقـول: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وكانـت مكائـد قريش تبـوء بالفشل فكلمـا حاولوا تشويـه رسول الله (صلـى الله عليـه وعلـى آلـه وسلم)ونشـر الأكاذيـب ومعارضـة القـرآن جـاء القـرآن بقـوة لينقض كل مكائدهم ويظهـر كـذب أقاويلهم وخبث نواياهـم: ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُـمْ تَغْلِبُونَ﴾ ‹فصلت:٢٦› وعندمـا يتكلمـون مع العامـة لتضليلهم يأتي القرآن ليفضحهم.

وفـي المكان الذي تجتمع فيه قريشـ [دار الندوة] كان الجميع يرى بوضوح هزيمة قريش أمام القرآن.

فقـام أحدهـم قائلاً: لقـد جعل محمدٌ منا ومـن آلهتنا حديث الناس فـي الأسـواق والمجالسـ ولا نستطيع مقارعته فمـا الحيلة لمنع الناس من اتباعه قبل أن يقضى عليكم؟.

ويجيبه آخر: لا حيلة إلا أن يتركه أبو طالب لنا على أن نعطيه مالاً، فينطلقون إلى أبي طالب ويعرضون عليه هذا العرض.

أبـو طالـب: أمـا المـال فلا حاجة لنـا به وأمـا الولد فمـا تنصفوني، أتعطوني ولداً أغذيه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟.

مطعم بن عدي: ما أراك تريد أن تقبل منا شيئاً.

أبـو طالـب: والله مـا أنصفتمونـي ولكنكـم قـد أردتـم وأجمعتم على خذلانـي ومظاهـرة القوم عليَّ فاصنعوا ما بدا لكم ثـم اتجه إلى محمد وقـال لـه: اذهب يا بني يا محمـد فافعل ما أحببت والله لا أسلمك لشيء أبداً وأنشد يقول:

والله لـن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسـد في التراب دفينـا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وامضِ وقَرَّ بذاك منك عيونا

ولـم يستطـع أولئك الطواغيت إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

تعذيب المستضعفين:

وعندمـا عجزت قريش عن مقارعة القـرآن وثني الرسول (صلى الله عليـه وعلـى آله وسلم) عن نهجه لجـأت إلى تعذيب من أسلم من العبيد

والموالي والضعفاء كبلال وخبَّاب وصهيب الذين كسروا حجار الأصنام حين كسرت قريش على صدورهم الحجارة في حر الشمس الشديد وألهبوا ناراً تأكل جبابرة قريش حين ألهبت ظهورهم السياط الظالمة لأيام وأيام ونرى سمية وزوجها ياسر وابنهما عمار يضربون أروع مثالٍ للأسرة المؤمنة.

أبو جهل يقول لعمار: تراجع يا ابن سمية وإلا قتلت أمك وأباك أمام عينيك. ولم يرد عليه عمار بشيء.

أبو جهل مشيراً إلى غلمانه: اضربوهم بالسياط. فيضربونهم حتى أغمي عليهم وبينما أبو جهل يعذبهم مر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) مواسياً لهم وموصلاً رسالة إلهية عاجلة بموعدهم الجميل ألا وهو الجنة حين قال: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**.

وبعد أيام من التعذيب يفقد أبو جهل عقله ويضع سنان رمحه على نارٍ حتى صار كالجمرة ليتقدم نحو سمية أم عمار وهو لا يدري أن خطواته تلك هي الفاصل بينها وبين الجنة فيطعن ظهرها لتفيض روحها الطاهرة محلقة إلى مكان الموعد منتظرة لزوجها ياسر، وهي أول شهيدة في سبيل الله وبعد لحظات حتى التحق بها زوجها ياسر.

الهجرة إلى الحبشة:

لما اشتد تعذيب قريش لمن آمن من المستضعفين أشار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر أحد عشر رجلاً وأربع نساء.

ولكن قريشاً نشرت خبراً أنها تركت تعذيب المسلمين، فلما بلغهم الخبر رجعوا بعد شهرين فوجدوها حيلة لإعادتهم.

ولكن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أشار عليهم مرة ثانية بالهجرة وجعل على رأسهم جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) فخرج ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشر امرأة بسرية تامة وتخطيط محكم فلما علمت قريش غضبت غضباً شديداً وأرسلت عمرو بن العاص أحد دهاة العرب وصديق ملك الحبشة وحمَّلته بالهدايا للملك ووزرائه.

عمرو بن العاص راكعاً بين يدي ملك الحبشة: كيف حال مولاي الملك المعظم؟.

النجاشي: على أحسن حال.. كيف أنت يا عمرو؟.. لقد غبت عنا كثيراً .... دار الحديث بينهما وسلم الهدايا.

النجاشي: ما أقدمك إلينا يا عمرو؟

عمرو: لقد فر إلى أرضكم من قومنا فتية خرجوا عن ديننا ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين جديد.

البطارقة [وزراء النجاشي]: نرى أن تسلمهم لعمرو يا مولانا الملك.

النجاشي: فأتوا لنسمع منهم قبل أن نسلمهم.

جعفر بن أبي طالب: كنا قومًا أهلَ جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيءُ الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف: نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزُّورِ، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا

بالصلاة والزكاة والصيام- وعدد عليه أمور الإسلام-؛ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله؛ فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحَرَّمْنَا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا؛ فَعَدَا علينا قَومُنَا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا-خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارِك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فَاقْرَأْهُ علي، فقرأ عليه صَدْرًا من ﴿كهيعص﴾، فبكى النجاشي حتى اخْضَلَّتْ [1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[2] واحدة؛ انطلقا فلا والله لا أُسَلِّمُهُمْ إليكما، ولا يُكَادُونَ! وقد أسلَم رحمه الله، ولما مات صلى عليه النبي وأصحابه صلاة الغائب.

وفي اليوم الثاني جاء عمرو بن العاص وقال للملك: إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً فاستدعى النجاشي جعفر بن أبي طالب وسأله.

النجاشي: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

جعفر: نقول فيه ما يقوله نبينا وتلا من سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ

---

(١) أي ابتلت من الدموع.

(٢) المشكاة: الكوة غير النافذة؛ أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنهما من شيء واحد.

لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ حتى بكى النجاشي والبطارقة.

النجاشي: انطلق يا عمرو فوالله لا أسلمهم إليكم. ثم يلتفت إلى غلمانه قائلاً: ردوا إليهم هداياهم.

وتعود قريش خائبة ويفرح رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) والمؤمنون بذلك.

إسلام حمزة:

نعم إنه الفرج يتوالى فها هو حمزة بن عبد المطلب راجع من رحلة صيد فتقف جارية لتخبره بسب وشتم أبي جهل لمحمد عند الصفا.

حمزة: وأين أبو جهل؟

الجارية: مع القوم في المسجد.

فيتجه حمزة مسرعاً إلى المسجد حتى وقف على رأس أبي جهل والغضب قد بدا على وجهه فيمسك قوسه ويضرب أبا جهل ضربة شجَّه بها وقال: ردها عليَّ إن استطعت. فقام رجال من الذين في المجلس وقالوا: يا حمزة ما نراك إلا قد صبأت.

حمزة: ومن يمنعني أن أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فامنعوني إن كنتم صادقين.

أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

فكان إسلام حمزة على رؤوس الملأ كصاعقة نزلت بقريش فهو فارسها الأول وسيد من ساداتها فقد أسلم بعده ثلاثون رجلاً وسقطت هيبة قريش وزاد المؤمنون قوة ومنعة.

حصار الشعب:

كبار قريش مجتمعون في دار الندوة يبحثون عن طريقة لحرب الدين الجديد.

أحدهم: إن أصحاب محمد قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً فما رأيكم؟

فكان كل شيطانٍ منهم يدلي بدلوه حتى استقر رأيهم على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب فلا يبيعون منهم ولا يزوجونهم ولا يجالسونهم ولا يكلمونهم حتى يسلموا محمداً وكتبوا بذلك صحيفة تعاهدوا عليها وعلقوها داخل الكعبة توكيداً على أنفسهم.

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب ودخلوا مع أبي طالب في شعبه إلا أبا لهب.

وفي ليلة من الليالي تسلل رجلان لاغتيال رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ولكن أبا طالب ارداهما قتيلين قبل أن يصلا إلى بيت رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

ويستمر الحصار ما يقارب ثلاث سنوات أنفقت خديجة مالها وأنفق بنو هاشم أموالهم في شراء الطعام سراً وأكلوا من أورق الشجر لشدة الجوع لأن قريشاً تحاصر أطفالاً ونساءً وكباراً في السن وتمنع من يريد الدخول إلى الشعب.

فهبط جبريل الأمين (عليه السلام) مبشراً بانتهاء كل ظلم وجور فالصحيفة قد أكلتها الأرضة ولم تترك إلا اسم الله. فأخبر رسول الله (صلوات الله عليه وآله وسلم) عمه أبا طالب الخبر.

أبو طالب: يا معشر قريش يا قوم.. ويخبرهم الخبر ثم قال: وإني آخذ عليكم إن كان صادقاً أن تتركوا أذيته وتؤمنوا به وإن كان كاذباً أتركه وشأنه معكم.

زعماء قريش: أنصفتنا يا أبا طالب.

فلما رأوا الصحيفة قد أكلتها الأرضة لم ينقضوا الحصار وأصروا على ظلمهم.

أبو طالب: هل تبين لكم أنكم الظالمون؟

فلم يردوا عليه.

فاتجه أبو طالب ومن معه إلى الكعبة قائلاً: يا معشر قريش نحاصر ونحبس وقد بان الأمر.

ثـم تعلـق بأستار الكعبة قائـلاً: اللهم انصرنا على مـن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل منا ما حرم اللّه. ثم انصرفوا إلى الشعب.

وفـي الليل وبسريـة اتفق ستة رجالٍ من قريش على نقض الصحيفة ورسمـوا خطـة محكمة فلما أصبح الصباح ذهبـوا وجلسوا متفرقين في النـادي حيـث تجتمـع قريشـ بالقرب مـن المسجـد وبينما أهـل النادي يتحدثـون قـام زهيـر وقـال: أنـأكل الطعـام ونلبسـ الثيـاب وبنـو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم واللّه لا أقعد حتى تشقق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

أبو جهل من جانب المسجد: كذبت واللّه لا تشق.

فقـام رفعـة مـن مكانـه وقـال مخاطباً أبـا جهـل: أنـت واللّه أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقـام الثالـث من مكانـه وقال: صـدق واللّه رفعة وكذلك قـال الرابع والخامسـ والسادسـ حتـى ظـن أهـل النـادي أن الأكثـر يريـدون نقض الصحيفـة فاتجـه أولئـك الرجـال ومعهـم مـن أهل النـادي إلـى الكعبة فلمـا رأوا الصحيفة قد أكلتها الأرضة ازدادوا إصراراً على كسر الحصار فاتجهـوا إلى أبـي طالب ومن في الشعب وأخرجوهم ليعودا إلى بيوتهم وينتهي الحصار الظالم.

عام الحزن:

إلا أن الفرحـة لـم تستمر طويـلاً فإن أبا طالب الـذي تخشاه قريش يغادرهـم إلـى جوار ربه راضيـاً مرضياً وقد آمن به وأسلـم ونصر رسول اللّه (صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم) ويعم الحزن كل أحياء مكة وبيوتها.

ويقف رسول الله (صلوات الله عليه وآله) بجوار الجسد الطاهر ويقول بصوت حزين: كفلتني يتيماً وربيتني صغيراً ونصرتني كبيراً فجزاك الله عني خيراً. ثم يغسله ويكفنه وألم الفراق يملأ الأجواء ودفنه بيديه الطاهرتين فأصبحت قريش تتحين الفرصة.

وبينما الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) في الأيام الأولى لفراق أبي طالب يرجع إلى زوجته التي تواسيه في كل محنة ولكنها ترقد على فراش المرض وعيناها تواسي رسول الله في مصابه بعمه وهي توشك أن تفارقه فمن يواسيه في مصابه بها فقد فاضت روح خديجة الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية فسألت فاطمة الزهراء أباها بعد الدفن: إلى أين ذهبت أمي؟

رسول الله (صلوات الله عليه وآله): «**إلى مقرها في الجنة مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم**».

فتطمئن فاطمة (عليها السلام) وترجع مع أبيها إلى المنزل لتكون القلب الحنون الذي يواسي رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) إنها حقاً أم أبيها فها هي ترفع الشوك الذي وضعته امرأة أبي لهب على الباب، وها هي ترعاه وتحوطه بعناية فائقة واهتمام كبير وها هي كذلك تشاطره كل الآلام والأحزان وتبكي لذلك.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يقول لها: «**يا ابنتي لا تبكي فإن الله مانعي وناصري**».

إنه عام الحزن فكان (صلوات الله عليه وعلى آله) يقول: «**ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات عمي أبو طالب**».

اللقاء بالأوس والخزرج:

وفي مواسم الحج كان رسول الله (صلوات الله عليه وآله) يدعو قبائل العرب قبيلة قبيلة.

ثم ذهب إلى القبائل قبيلة قبيلة فكانوا يرفضونه ويصدونه حتى وصل إلى ستة رجال من قبيلة يمنية هي الأوس والخزرج في يثرب .

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) عند جمرة العقبة: السلام عليكم يا أهل يثرب.

أسعد بن زرارة الخزرجي مستقبلاً: وعليك السلام.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): «**إني رسول الله لأدعو الناس إلى عبادة الله وألا يشركوا به شيئاً وأنزل عليَّ القرآن لأنذركم به ومن بلغ....**» ثم تلا آيات من القرآن الكريم فأنصت القوم حتى سكت رسول الله (صلوات الله عليه وآله).

أهل يثرب: ما أعذب هذا الكلام يا قوم إن هذا رسول الله وما هذا الكلام إلا من عند الله.. نشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله. فبايعوه.

أهل يثرب: يا رسول الله ابعث معنا من يعلمنا ويفقهنا ويدعو قومنا إلى الإسلام.

رسول الله (صوات الله عليه وآله): «**سنبعث معكم مصعب بن عمير بن هاشم**».

فينطلق أهل يثرب بعد الموسم ومعهم مصعب بن عمير.

مصعب بن عمير - بعد ثلاثة أيام-: يا أهل يثرب إن رسول الله بعثني أدعوكم إلى عبادة الله وألا تشركوا به شيئاً.. وتلا عليهم من القرآن

الكريـم فأنصتـوا فلما فرغ من التلاوة اقبلـوا عليه يزدادون من التلاوة فيتلوا عليهم وهم منصتون بقلوبهم.

سعد بن معاذ: يا قوم إن هذا الكلام من عند الله وما جاء به إلا رسول من عند الله وإني كبيركم سعد بن معاذ أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فأسلم بعده المئات من أهل يثرب.

ولمـا جـاء الموسـم الثانـي للحج خـرج الكثير مـن أهل يثـرب ليروا رسـول الله (صلـوات الله عليـه وعلـى آلـه) ويسمعـوا منـه القـرآن ولمـا وصلـوا إلـى الحـج لم يظهـروا إسلامهم وفـي ليلة من ليالـي التشريق اتفقوا مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) سراً عند جمرة العقبة وهـم ثلاثـة وسبعون رجـلاً وامرأتان، وكان مع رسـول الله (صلوات الله عليـه وعلى آله) عمه العباس فتكلـم العباس فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت فليتكلم رسول الله (صلوات الله عليه وآله) ويأخذ لنفسه.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) تكلم وتلا من القرآن ورغبهم فـي الإسـلام وقـال: **«تمنعونـي ممـا تمنعـون منـه أنفسكـم وأبناءكـم ونساءكم»**.

البـراء بـن معرور: والذي بعثـك لنا لنمنعنك مما نمنـع منه ذرارينا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب.

وأمرهـم رسـول الله (صلـوات الله عليه وعلى آلـه) أن يخرجوا منهم اثني عشـر كفيلاً.

رسـول الله (صلـوات الله عليـه وآلـه): **«أنتـم كفلاء قومكـم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام»**.

وما أعظم وأفضل وأربح المدينة وأهلها وما أحقر واسوأ وأخسر أهل مكة في تلك اللحظات التي يستنفر فيها أهلها لاغتيال رسول الله (صلوات الله عليه وآله) وفي نفس الوقت تستعد المدينة لاستقبال ونصرة رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

ووجه النبي بشكل كبير من مجتمع قريش:

وهكذا ووجه النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) بشكل كبير من بيئته ذاتها من محيطه نفسه من ذلك المجتمع الذي هو مجتمعه الذي ولد فيه ونشأ فيه وتربى فيه وعاش فيه ويعرفه جيداً مجتمع قريش الذي كان يعيش وضعاً مريحاً ومختلفاً من بعض النواحي عن بعض المجتمعات في المنقطة العربية وغيرها بفضل شرف البيت الحرام وكرامة البيت الحرام الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ ‹قريش› مجتمع قريش كان يحظى باستقرار أمني اكثر من غيره من المجتمعات، المجتمعات الاخرى تحترم هذا المجتمع لوجود بيت الله الحرام هناك في مكة ويحظى باستقرار اقتصادي الله سبحانه وتعالى استجاب لدعوة نبيه ابراهيم وبحكمته ايضاً سبحانه وتعالى أراد لمكة أن يكون فيها الخير ورغد العيش وسعد المعيشة حتى يساعد ذلك على استقرار هناك لصالح الحجاج الذين يأمون البيت الحرام ولصالح عمارة هذا المسجد الحرام بالطاعة والعبادة والذكر لله سبحانه وتعالى في اجواء آمنه ومستقرة على المستوى الامني وعلى المستوى الاقتصادي والمعيشي.

كان مشركوا مكة يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس للّه ولبيته الحرام كما هو الحال اليوم من نظام آل سعود:

وكما هي العادة كما نشاهد اليوم كان البعض من اولئك من كفار مكة ومن مشركي مكة كانوا يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس لله ولبيته الحرام ولوجود بيته الحرام الفضل عليهم اليوم كما نشاهد النظام السعودي الذي يستغل البيت الحرام ويستغل فريضة الحج ويستغل العمرة أيضاً في الحصول على اموال هائلة جداً باعتبارها اكبر معلم سياحي ديني في العام ولا يماثله معلماً آخر ربما في التوافد إليه في الحرص على الوصول إليها في زيارته في الحج إليه، يستفيد منه الاموال الكثيرة يستفيد منه على مستويات أخرى يحاول ان يستغل سيطرته وهيمنته عليه حتى على المستوى السياسي وعلى سائر المستويات مع كل ذلك يتمنن وكانه هو من له المنّه في وجود البيت الحرام في مكة وكأنه هو الذي يخدم هذا البيت وليس يستغله ويكسب منه ، والذي يعطيه لا يساوي شيئاً ابداً بقدر ما يأخذهُ ويكسبهُ ويستفيده وهذا معلوم.

علـى كلٍ ذلك المجتمع وتلك البيئة القليل القليل منها هم الذين اسلموا هم الذين استجابوا لرسالة الله سبحانه وتعالى، هم الذين انفتحوا على دين الله سبحانه وتعالى ومبادئه وقيمه اما الاخرون فقد قال الله عنهم ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ‹يس:٧› لم يؤمن منهم إلا القليل الاكثر لم يؤمنوا حتى فيما بعد لم يدخل الايمان الى قلوبهم النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) بالرغم من طيلة المدة التي قضاها في مكة ثلاثة عشر عاماً كما في بعض الاخبار والروايات لم يؤمن إلا دون الالف مع بعض الاحصائيات مع جهدٍ كبيرٍ بذلهُ هناك.

النبي لم يفشل فقد حقق نتائج مهمة جداً في مكة:

ولكنه لم يفشل فقد حقق نتائج مهمة جداً في مكة اول نتيجة هي نتيجة مهمة للغاية انه اوصل صوته اوصل صدى هذا الدين الجديد هذا الاسلام المستجد في تلك البيئة وإلا فالاسلام هو رسالة الله ودينه لانبيائه جميعاً، اوصل صدى وصوت هذا الدين الى كل انحاء الجزيرة التي كانت تتوافد منها الوفود للحج الى بيت الله الحرام لأن الحج كان باقياً منذ نبي الله ابراهيم في الوسط العربي كان العرب مايزالون يحجون حتى في عصر الجاهلية وبالتالي كانت الوفود القادمة الى مكة للحج وللتجارة كانت تسمع بهذا الدين تعرف مبادءهُ يلتقي بها النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) يعرفها بالاسلام يدعوها إلى الله إلى دينه المجيد وهذا كان له أهمية كبيرة فيما بعد لان وصول هذا الصوت الى الاخرين مهم جداً يهيئهم فيما بعد للاستجابة عن معرفة الكثير قد تحول بينهم وبين الاستجابة عوائق معينة لكن حينما يكونون قد عرفوا وتزول تلك العوائق يكونون جاهزين للدخول في الاسلام وهذا ما حدث في الاسلام وهذا ما حدث فيما بعد، بعد زوال بعض العوائق والموانع التي تؤثر على البعض بينما لا يتأثر بها البعض الآخر على كل حال قريش بأكثرها الا القليل واجهة الرسول ورسالته بالتكذيب والصد والافتراء والاستهداف على كل المستويات والدعايات المتنوعة وكل اشكال الصد والتكذيب، قالوا عنه انه كذاب قالوا انه ساحر قالوا انه افترى على الله قالوا عنه انه مجنون قالوا الكثير من الدعايات والاتهامات التي استهدفوا بها شخصية النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وهم يعرفونه هم كانوا يسمونه بالصادق الامين اضافة الى ذلك هم واجهوا كثيراً من مبادئ الرسالة ومن ضمنها مبدأ المعاد، مبدأ

التوحيد جملة من المبادئ المهمة والاساسية في الرسالة واجهوها ايضاً بالتكذيب وبالجدل وبالخصام الى غير ذلك.

قلق قريش يزداد:

ولكن مع كل ذلك كانوا يلحظون هم أن بنيان هذا الدين يزداد صلابةً وقوةً واتساعاً فزاد قلقهم وبذلك انتقلوا في مؤامراتهم الى محطة اخرى سيما بعد رحيل من كان دور اساسي في حماية النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) مثال ابي طالب اتجهوا الى التآمر المباشر على شخصية النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في مرحلة كان الله سبحانه وتعالى قد هيأ فيها لهذا النبي مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام ومرحلة مهمة بعد اشراف المرحلة الاولى على الاكتمال، المرحلة التي تسمى بالمرحلة المكية كان فيها ثلاثة اشياء مهمة جداً قد تحققت المسألة الاولى هي ان مكة كمركز مهم للتوافد اليه من شتى انحاء الجزيرة قد قدم خدمة كبيرة فذاع فيها صيت الاسلام ووصل فيها صوت الرسول واصبح معروف بالشكل المهم والمطلوب واللازم في الجزيرة العربية بشكل عام.

اضافة الى بناء اللبنة الاولى للجماعة المسلمة التي سيكون لها دور اساس من المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) الى المدينة.

اضافة الى ذلك تهيأة بيئة جديدة قابلة وحاضنة للإسلام هم الانصار الاوس والخزرج الذين من خلال توافدهم الى مكة للحج عرفوا بالرسالة وسمعوا من النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وبينهم روابط عشائرية مع النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وهم اخوال والده وبالتالي كانت البيئة الجديدة التي كان قد عمل النبي

(صلوات الله عليه وعلى آله) قد عمل على تهيئتها وارسل إليها بعض المهاجرين ليهيئوها اكثر وينشروا الاسلام فيها ويعملوا على تهيئتها بشكل مناسب لاستقبال الرسول واستقبال هذا الدين ونصرته.

كان المجتمع المكي أمام شرف عظيم جداً:

فأكثرية هذا المجتمع عندما أتى الإسلام وبُعث الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله)، كان لهذا المجتمع فرصة مهمة جداً أن يكون هو النواة الأولى التي يتشكل منها المجتمع الإسلامي، وتبنى من خلالها الرسالة الإسلامية بكلها، وأن يكون القدوة لبقية المجتمعات والحامل الأول لهذا المشروع العظيم، فيشرف بهذا الشرف، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى، عن رسالته عن كتابه، عن قرآنية: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، شرف كبير، مشروع عزة، مشروع كرامة، مشروع ارتقاء. ولكن هذا المجتمع لم يستفد من هذه الفرصة، لم يقبل بهذا الشرف حتى لم يرَ فيه شرفاً، كانت موازينه مختلة، رؤيته عمياء، فهمه للأشياء فهم مغلوط، فكانت عنده حالة الاستكبار، الارتباط بالمستكبرين، المستكبرون أنفسهم كانوا هم في الطليعة صادِّين ومستكبرين ومعارضين ومثبِّطين ومعادين بكل ما تعنيه الكلمة، وكانت لهم دوافعهم الاستكبارية بالطبع، يقولون فيما يقولون: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾، كيف ينزل عليه وليس أثرانا مالاً، ولا أقوانا سلطةً، فكيف ينزل عليه الذكر، القرآن الوحي الإلهي من بيننا؛ لأنهم كانوا يرون قيمة الإنسان، وأحقيته بالاتباع بقدر ما لديه من ثروة، من قوة، من إمكانات، حينها يرون فيه هو الذي يجب أن يُتَّبع، ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ

من بَيْنِنَا﴾، ليس عندهم اعتبارات للقيمة الإنسانية والقيمة الأخلاقية التي تؤهل لحمل هذا المشروع بما يؤهل الله بها رسله وأنبياءه.

المجتمع من حولهم يقول كذلك، وقالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، كان هناك في مكة، وهناك في الطائف أثرياء، هناك زعامات ثرية، لها سلطة، لها تأثير، لها أتباع، لها قوة، لماذا لم ينزل عليه القرآن، هذه النظرة الغبية والجاهلة، هذه النظرة التي كان تقدم الاقتراحات والاعتراضات في نزول الوحي على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وعلى حركته بالرسالة، بهذه الاعبارات وبهذه المقاييس المادية.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾، نريد منك أشياء مادية حتى نرى وزنك فيها، قيمتك فيها، أحقيتك بالاتباع من خلالها، أحياناً يقولون: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ يعني: لماذا لا يمتلك مثل هذه الأشياء؟ حينها سنتبعه، عندما يصبح معه كنز وثروات، ننجذب إليه بفعل ما معه من ثروة، ما معه من إمكانات.

في حالة من الحالات قالوا له: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ لماذا لا يكون لديك قصر من الذهب، فنرى بريق الذهب فننجذب إليك وننجذب إلى رسالتك ونؤمن بك بقدر ما نرى من بريق ذهب قصرك.

أي نظرة هذه؟! هي النظرة السائدة لدى الكثير من الناس، فلا ينجذبون إلاَّ لهذه العوامل، وبهذه المؤثرات، هذا أثَّر عليهم، أثَّر على ذلك المجتمع فوصل إلى درجة قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

الأكثرية في هذا المجتمع وصلوا إلى درجة الخذلان والعمى الرهيب والامتناع الكلي والانصراف الشامل عن تقبُّل هذا الدين، عن تقبل هذا الحق، عن الإقبال إلى هذه الرسالة الإلهية التي فيها كل الشرف وفيها كل الخير، فلم يروا عظيماً إلا أبا جهل، وإلا أبا سفيان، وإلا تلك الشخصيات والزعامات التي كان لها سلطة وثروة، كانوا يرون فيهم العظماء، ولا يرون القيمة في غير ذلك.

❊ ❊ ❊

وهنا أتى من الله قرار بالهجرة

في ظرف كهذا، في مجتمع كهذا، في بيئة كهذه هي بيئة ضياع، بيئة غير قابلة أن تحمل رسالة الله، أن تتقبَّل وتنفتح على المبادئ، هذه بيئة حيوانية، بيئة غريزية، الناس فيها لا يلتفتون ولا يتأثرون إلا بدافع الماديات والأطماع فقط، يريدون أموالاً، يريدون ذهباً، يريدون تجارة، يريدون مصالح مادية ومكاسب مادية على نحوٍ أعمى بانفصال كامل عن المبادئ والقيم والأخلاق.

لم تَعُد أرضية صالحة لأن ينشأ فيها نبت الإسلام الطيِّب، فلذلك أتى قرار بالهجرة أمراً من الله سبحانه وتعالى في آيات متعددة في القرآن الكريم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، وآيات كثيرة في القرآن الكريم أتى فيها الإذن بالهجرة، في المقابل سنة الله في الاستبدال قائمة والمشروع الإلهي لا يتعطل، إذا كان هناك مجتمع منغلق، خانع وخاضع للمستكبرين، يعيش التعبية العمياء، والانغلاق التام، لا يسمع ولا يبصر، لا يهتدي، لا يذعن للحق، لا يقبل بالنور، فسنة الله في الاستبدال قائمة، تأتي مجتمعات أخرى، مجتمعات مختلفة تماماً، مجتمعات تبصر، تسمع للحق، تتقبل الحق، لديها في واقعها النفسي والمعنوي ما يؤهلها للانفتاح على هذا الحق،

بعيداً عن مجتمع مكة.. كان هناك مجتمع آخر، هو مجتمع المدينة، مدينة يثرب المدينة المنورة، في هذا المجتمع قبيلتان يمنيتان هما: الأوس والخزرج، كان لهما الشرف الكبير والفضل العظيم، والدور التاريخي المُهِمّ. هذا المجتمع المكون من هاتين القبيلتين من الأوس والخزرج؛ اختاره الله سبحانه وتعالى بديلاً عن ذلك المجتمع.

ودخل هذا المجتمع.. دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فكان هو المجتمع الذي آوى، وكان هو الأرضية التي نبت فيها نبت الإسلام العظيم والطيب، وكان هو المجتمع الذي شكَّل اللبنة الفاعلة والصلبة والقوية لنشوء الكيان الإسلامي، فهو المجتمع الذي آوى واستقبل المهاجرين، آوى الرسول ونصره واستقبل المهاجرين، وشكَّل مع المهاجرين نواة عظيمة وصلبة وقوية لحمل راية الإسلام، فكان له ميزات مهمة.

بعض مميزات المجتمع المدني:

ونأتي إلى بعض الميزات لهذا المجتمع من خلال نص قرآنيّ ونص نبويّ، النص القرآني يقول الله سبحانه وتعالى – بعدما تحدث عن المهاجرين تحدث عن الأنصار -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

المجتمع في مكة كان مجتمع طمع، مجتمع مادي، مجتمع يلهث وراء أن يأخذ بأي حال بأي أسلوب بأي طريقة، المجتمع في المدينة - مجتمع الأوس والخزرج - كان مجتمعاً معطاءً، مجتمعاً كريماً، مجتمعاً سخياً، فكانت هاتان الحالتان تشكلان عاملاً مهماً في الفوارق الكبيرة بين مجتمع جدير ومهيئ وقابل لحمل هذه الرسالة، ومجتمع ليس مستعداً لتقبُّلها.

المجتمع هذا كان على درجة عالية من الاستعداد للتضحية والبذل والعطاء، مجتمعاً كريماً وسخياً بكل ما تعنيه الكلمة، كان في استعداده للعطاء، في استعداده للتضحية، في استعداده للبذل، فيما يقدم، فيما يعطي، كان إلى مستوى هذه الدرجة الفريدة العظيمة المهمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

قد يُعطي الغني وهو متمكن، ويعطي قليلاً مما لديه من ثروة، وضمن حساباته التي يرى فيها أنما أعطاه لا يؤثر على ثروته وإمكاناته، لكن الحالة التي يؤثر الإنسان فيها على نفسه.. على نفسه.. هي الحالة التي يقدم فيها لقضيته، يقدم فيها لمبادئه، لأخلاقه، يقدم فيها على حساب مصلحته الشخصية، وهل الإنسان خاسر في هذا؟ لا.

هؤلاء الذين هم أهل عطاء، هؤلاء الذين يحملون روحية العطاء بكل أشكاله هم البناة الحقيقيون للمجتمعات الكبرى، هم الفعَّالون، والمؤهلون لحمل القضايا الكبيرة، والمواقف العظيمة والمهمة، هم الاستثنائيون في التاريخ، هم البُنَاةُ، هم المؤسسون، هم الذين يصلحون لأن يكونوا رافعةً حقيقية للمشاريع الكبرى والمهمة، هم الفعَّالون والعمليون، أما أولئك فمكبَّلون بالشُّحّ، بالطمع، بالجشع، بالحرص، لا يؤهلهم ذلك لأن يكونوا راقين، إنما يهيؤهم لأن يكونوا منحطين؛ لأن الطمع والجشع يذلُّ الإنسان، الطمع كما قال الإمام علي عليه السلام: «رقٌّ مؤبَّد»، رقّ، عبودية، الطمع هو مهانة، هو خزي، هو خسَّة، هو انحطاط، هو دناءة، الطَّمع الأعمى والجشع يهين الإنسان، يذل الإنسان، يجعل الإنسان يخضع للباطل أو يتَّجه في صف الظالمين والمستكبرين فيمارس معهم وفي صفِّهم أي جرائم، وأي فظائع مهما كانت؛ لينال شيئاً منهم.

أما أولئك الذين يحملون روحية العطاء والبذل، هو يفكر في كيف يقدم، وهو يقدم حتى في الظروف الصعبة جداً، هؤلاء هم الصابرون، هم الاستثنائيون، هم الأقدرون على حمل المشاريع المهمة والكبرى، هذه ميزة، ميزة هيأتهم لحمل الرسالة الإلهية.

النص النبوي فيما روي عن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو يقول لهم.. يثني عليهم: «**إنكم ما علمتم**» يعني كما أنتم تعلمون وتعرفون أنفسكم «**تكثرون عن الفزع، وتقلون عند الطمع**»، الله أكبر ما أعظم هذه الصفة! رجال! رجال بما تعنيه الكلمة، تكثرون عند الفزع، عند الأخطار، وعند التحديات، تهبُّون وتتحركون وتظهرون وتأتون وتهبُّون. أما إذا المسألة مسألة أطماع ومصالح شخصية تقلُّون. ليس هناك ازدحام من جانبهم، إذا المسألة مسألة غنيمة أو مكاسب مادية، ليس هناك ذلك الازدحام، وذلك التهافت.

كانوا على هذا المستوى، كما قالوا هم عن أنفسهم – يخاطبون رسول الله - : «**وإنا لَصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء**»، كانت هذه المواصفات المهمة والروحية العالية التي أهَّلتهم لأن يكون المجتمع الذي يحمل رسالة الله، يحمل راية الإسلام، يأوي وينصر ويستقبل ويحتضن ويتحرك بكل جديَّة، يعطي لهذه الرسالة كل شيء، يعطي النفس، يعطي المال، ولكنه في المقابل كسب كل شيء، كسب رضا الله، كسب العزّ الأبديّ، كسب الشرف الذي لا يساويه شرف، كسب المكانة التاريخية، وحقّق الكثير، وحقق الله على يديه الكثير.

الأنصار نالوا الشرف العظيم:

الانصار هؤلاء الاوس والخزرج القبيلتان اليمانيتان نالوا هم الشرف العظيم الذي خسرهُ مجتمع قريش في اكثره مجتمع قرش في اكثر الذي واجه الرسالة والرسول بالخصام الالد بالنكران والتكذيب بالكفر والعناد بالبغضاء والاحقاد بالتصلب كان هناك مجتمع بديل وكما قال الله سبحانه وتعالى ﴿**فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا**

بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهنا نستذكر هذه المنقبة التي ينبغي ان يتطلع إليها شعبنا اليمني العظيم بصفحة بيضاء صفحة عظيمة في تاريخه، الانصار الذين هم من اصل يمني من اليمانيين هم حضوا بهذا الشرف، شرف ان يكونوا هم البيئة التي تنصر وتأوي وتؤيد وتحمل لواء الحق والعدالة وتحمل قيم الاسلام وتستقبل الرسول الذي اراد قومه في مكة قتله وتآمروا عليه حتى شخصياً وتنكروا لرسالته العظيمة هيأ الله لهؤلاء الانصار اليمانيين أن يكونوا هم من يؤمنون من ينصرون من يأوون من يتقبل هذه الرسالة بكل رحابة صدر ومحبة وعشق واخلاص وصدقٍ ومودة فحضوا بشرف عظيم ما بعده شرف.

ولنترك الرواية للمؤرخين:

لما علمت قريش ما كان من الأنصار ومبايعتهم للرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) إشتدَّ أذاهم على من بمكة من المسلمين فأمرهم رسول الله بالهجرة إلى المدينة وهذه صفة القائد العظيم الذي يهتم بأمته ويرأف بهم فبادر بعضهم إليها في خفاء وتستر ونزلوا على الأنصار في دورهم فأكرموا نزلهم وآووهم فلما علمت قريش أحسو بالخطر وأرادوا أن يتلافوا الأمر قبل أن يفلت من أيديهم حسب زعمهم فعقدوا إجتماعاً طارئاً في دار الندوة الذي كانوا يجتمعون فيه حضره جميع زعماء قريش ومشائخها.

فقال خطيبهم: يا قوم إن أمر محمد قد ذاع في البلدان وباتت الأمور تخرج عن نِطاق السيطرة فأوجدوا لنا حلاً.

أمية بن خلف: نحبس محمداً حتى يذوق طعم المنون.

أحد الزعماء: بئس الرأي هذا الرأي إنه سيثير سخط المسلمين علينا وقد يأتي من يخرجه من بيننا.

فقال عتبه وأبو سفيان: نركب محمداً على ذلول صعب فنوثق رباطه عليه فنخرجه من مكة فيقطعه في الشعاب والأودية أو يتيه في الصحراء فيموت.

أبو جهل: إني قد رأيت لكم رأياً سديداً.

القوم: ما هو يا أبا جهل أخبرنا.

أبو جهل: نختار من كل قبيلة رجلاً متقلداً سيفاً حساماً حتى إذا غسق الليل هجموا عليه في بيته وضربوه ضربة رجل واحد فيريحونا منه.

القوم: إن بني هاشم ستقوم بثأره.

أبو جهل: كلا يا قوم إن دمه سيتفرق بين القبائل فلا تستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره فلا يجدون بداً من القبول بالدية.

القوم: نعم الرأي رأيك يا أبا جهل.

بدأ العمل بالتخطيط لهذه الجريمة والاعداد لها ظناً منهم أن هذه الجريمة ستريحهم وسيتخلصون من محمد ودعوته متجاهلين قوة الله القاهر وشدة بطشه وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى فقد نجى أنبياءه في أحلك الظروف وأشدها فقد نجى نوحاً وإبراهيم وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام.

وفي أجواء من السرية والتكتم كان يخطط زعماء قريش ولا يعلمون أن الله يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. أرسل الله أمين الوحي جبريل (عليه السلام) في رسالة عاجلة تكشف لرسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ما خفي عنه فأخبره جبريل

بالخبر وتلا عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ‹الأنفال: ٣٠›.

أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة فأخبر وصيه وخليله وأمين سره الفتى الشجاع الإمام علي عليه السلام بهذه المؤامرة.

الرسول الأكرم (صلوات الله عليه وعلى آله): «يا علي أوحى إلي ربي أن أهجر دار قومي وأنطلق إلى غار ثور وأن آمرك بالمبيت بمضجعي ليخفى عليهم أمري».

علي: أوتسلمن بمبيتي يا نبي الله.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): «نعم».

علي (عليه السلام): مبتسماً ثم يهوي إلى الأرض ساجداً شكراً لله لمَّا بشره رسول الله بسلامته.

فلما رفع راسه قال امض في ما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي وأمرني بما شئت.

فقال: «ارقد على فراشي واشتمل ببردتي الحضرمي وقد امتحنك الله يا بن عم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن الله خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل فصبراً صبراً فإن رحمة الله قريب من المحسنين»، ثم ضمه إلى صدره وبكا فأنزل الله في علي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ‹البقرة: ٢٠٧›.

ليلة الهجرة:

أخذ النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) يتهيأ لهذه الرحلة الخطيرة ويخطط لها وهو يعلم أن هذه الليلة هي الليلة التي يريدون قتله فيها رغم ذلك كان متأسفاً ومتحسراً على قومه لعدم إسلامهم لكي لا تنالهم عقوبة الله وسخطه بسبب إقدامهم وتجرؤهم على محاولة قتل نبي الله.

كانت مكة في حالة ترقب واستنفار والكون يلتهب وملائكة الله في دهشة مما يحدث قرر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يكون خروجه أولاً إلى جنوب مكة عكس طريق المدينة وحتى يهدأ الوضع كما علمه الله.

ولبث (صلوات الله عليه وعلى آله) مع علي يوصيه ويأمره بالصبر وأداء الأمانات التي كانت عند رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

أعدت قريش أربعين مقاتلاً من صناديدها مع كل واحد منهم سيفه البتار وصدرت التعليمات فذهبوا إلى بيت رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) متخفين في ظلام الليل الدامس لتنفيذ تلك الجريمة البشعة ألا وهي قتل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أشرف وأكرم مخلوق في هذا الكون.

يا لها من جريمة ما أبشعها إنها جريمة بكل المقاييس إنه أسلوب اليهود مع أنبياء الله! وصلوا إلى منزل الرسول المصطفى (صلوات الله عليه وعلى آله) في جنح الظلام وأحاطوا به وطوقوه من كل الاتجاهات مستلين سيوفهم في تأهب واستعداد ينتظرون إلى أن ينتصف الليل وتنام الأعين وتحين ساعة الصفر لتنفيذ الجريمة.

الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) يتهيأ للخروج في أجواء من الطمأنينة؛ لأنه واثق بالله وبوعده لأن الله لا يتخلى عن أوليائه فقد جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ونجا موسى ومن معه وجعل البحر طريقا لهم وأهلك فرعون وجنده.

ثم بعد ذلك يصلى الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) هو وعلي (عليه السلام) العشاءين ونام علي على فراش النبي بكل استبسال وشجاعة وخرج (صلوات الله عليه وعلى آله) من الدار بعد العشاء الآخرة وهو يقرأ ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ ‹يس:٩› وأخذ بيده قبضة من التراب فرماها على رؤوسهم فما شعر القوم به حتى تجاوزهم ومضى إلى غار ثور أسفل مكة.

ما أعظم قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ‹يس:٨٢› إن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه أبداً.

فلما أرخى الليل سدوله وانقطع الأثر أقبل القوم يقتربون من الدار قليلاً قليلاً وأخذوا يرمون علياً بالحجارة معتقدين أنه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) حتى إذا قرب الفجر ودقت ساعة الصفر هجموا على الدار وكانت دور مكة لا أبواب لها يتقدمهم خالد بن الوليد فوثب عليهم علي وثبة الأسد الضرغام وأخذ السيف من يد خالد وشد عليهم به فهربوا إلى خارج الدار فأبصروه فإذا هو علي فقالوا إنا لا نريدك أين صاحبك.. فخيب الله أملهم وجعل كيدهم في تضليل.

لكنهم لم يكتفوا بما فعلوا فنادى مناديهم إن محمداً قد خرج من داره ولا يكون خروجه إلا إلى يثرب فالحقوا به لا يفوتنكم الرجل إبحثوا عنه في كل مكان.

فانطلق إلى حيث أمره ربه إلى غار ثور فدخل الغار فأرسل الله جندياً بسيطاً من جنوده إنه العنكبوت الحشرة الضعيفة أمرها الله أن تنسج على باب الغار وأمر الله حمامتان فباضتا في باب الغار ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وصلت مجموعة من فرسان المشركين إلى باب الغار فشاهدوا نسيج العنكبوت وبيض الحمام فقال بعضهم إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد.

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

أهل يثرب في انتظار وصول الرسول:

كان أهل يثرب مستبشرين بقدوم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وكانوا في كل صباح يخرجون إلى ضواحي المدينة لاستقباله في شوق وتلهف إلى قدومه ورؤيته؛ لأنهم عرفوا قدره وفضله وقدر النعمة التي جاء بها بعكس أهل مكة.

كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) على مقربة من المدينة فنزل في مكان يسمى قباء فاستقبله أهلها إستقبالاً عظيماً وأسس فيها مسجده الذي قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى

مِن أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ‹التوبة:١٠٨› ومكث فيها إلى أن لحق به علي ومن معه من العوائل وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى تفطرت قدماه (عليه السلام) ثم قدموا إلى المدينة.

وصل النور والسراج المنير إلى المدينة ما أروعها من لحظات وما أجمله من قدوم كيف لا وهو الرحمة المهداة الذي استنقذ الله به العالم، فقد كانوا على شفا حفرة من النار وأخرجهم من الظلمات إلى النور ودلهم على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

استقبله الأنصار بكل فرحٍ وسرور متشرفين بقدومه مرددين الأناشيد التي تعبر عن فرحتهمٍ بقدوم هذا الضيف الكريم منها:-

طلع البدر علينا ... وجب الشكر علينا
أيها المبعوث فينا ... جئت شرفت المدينة
من ثنيات الوداع ... ما دعا لله داع
جئت بالأمر المطاع ... مرحباً يا خير داع

دخل الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) المدينة طاوياً صفحة من الدعوة إلى الله مع أهله وقومه وأهل بلده مستقبلاً عهداً جديداً من الجهاد والعمل في غير وطنه.. دخل وهو يرسم ملامح دولة إسلامية ربانية تقيم شرع الله، وتقوم بنشر دين الله في جميع أقطار المعمورة.

دخل المدينة وكل واحد من أهلها يريد أن يتشرف بضيافته، كل واحد يمسك بزمام ناقته (صلوات الله عليه وعلى آله) يريده أن يحل ضيفاً عنده ولكن الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) يقول لهم: «دعوها فإنها مأمورة».

الرسول ليس همه أين سيجلس أو في أي بيت سيكون الأكل.. كلا. إن همه الأكبر كيف يهتدي الناس؟ كيف يزيل المنكر من أوساطهم؟ بركت الناقة بأمر الله في مكان أراده الله سبحانه وفي ذلك المكان بنى مسجده المعروف في المدينة أقام مسجداً ليس للصلاة والعبادة فحسب بل يكون من خلاله إدارة شؤون الدولة وتبليغ الرسالة وتدبير الجهاد والتخطيط للمعارك فلم يكن له قصر ولا مجلس للوزراء بل كان من خلال المسجد يقوم بكل أعماله.

بركت الناقة أخذ أبو أيوب الأنصاري متاعه إلى منزله فأخذ الناس يكلمونه فقال المرء مع رحله ونزل عند أبي أيوب الأنصاري.

الهجرة كانت تحولا كبيراً في تاريخ الإسلام:

هجرة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) كانت تحولا كبيرا في تاريخ الإسلام كانت إيذانا بفرج لهذا الرجل العظيم وللمسلمين وللأمة وللخلق بعد ثلاثة عشرة سنة من المتاعب الكبيرة في مكة.

أما مجتمع مكة فقد خسر شرف نصرة الحق ولم يضع الإسلام لم يضع عندما يقوم مجتمع بخذلان الحق فإنه هو من يخسر عندما يقوم أي مجتمع كان هن من يخسر ويستبدل الله بدله مجتمع آخر يحظى بذلك الشرف العظيم شرف الإسلام وشرف قوة الإسلام.

بعد ذلك التحول التاريخي الكبير في هجرة النبي وخسارة مكة وفوز أهل المدينة أهل يثرب فوزهم بشرف النصرة للحق والإيواء للمهاجرين وبأن يجعلوا من منطقتهم وبلدهم ساحة مقدسة طاهرة يقوم عليها أول بذرة للإسلام في المنطقة العربية في ذلك العصر وتكون بداية لعصر جديد وعهد جديد للأمة العربية وللعالم بكله تحول تاريخيا كبيرا.

الإسلام انتصر والإسلام امتد نفوذه في العالم رغم كل المؤامرات فما الذي حصل فيما بعد؟ ولماذا تغير واقع الأمة بعد عهد كبير من الصراع ثم انتصار الحق ثم ماذا ضياع للأمة العربية وهوان لأنها تخلت ذلك المشروع الكبير عندما ابتعد الناس عن الدين عن الله عن النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) عن اتباع هدى الله عن نصرة الحق وتخاذلوا ضاعت الأمة.

فمثلت الهجرة انتقالاً جديداً ومرحلة جديدة فارقة في تاريخ البشرية وليس فقط للمسلمين لأن الاسلام هو دين الخلاص للبشرية جمعا هو ارث الانبياء كل الانبياء نوحٍ وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل الانبياء الاسلام هو يُمثّل المبادئ الالهية التي هي من الله سبحانه وتعالى وهي توافق الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، هو دين الفطرة هو دين الرحمة هو دين العدالة وهذه اشياء هي من صميم واقع البشرية، البشرية بحاجة إليها لا يمكن ان تتحقق للبشرية ولا يتحقق للانسان انسانية بما تعنية الكلمة فيما يعنيه مقامه الانساني ودوره الانساني واخلاقه كانسان وقيمه كانسان إلا بتلك التعالم التي جاء بها الانباء في اممهم وجاء بها خاتم الانباء وارثاً لكل الانبياء ومتمماً لكل الانباء وخاتماً لكل الانباء بكل ما تعنيه الكلمة فإذاً المرحلة كانت انفتاح افق واسع لصالح البشرية جمعاً.

***

من أهم العبر والدروس من الهجرة

أن الإسلام هو مشروع إلهي مكتوب له من الله أن ينتصر:

من أهم ما يجب أن نعرفه عن الإسلام قضية هامة جدا جدا هي: أن الإسلام هو دين مشروع إلهي مكتوب له من الله أن يغلب وأن ينتصر ويظهر على كل الأديان وعلى كل الأباطيل ويظهر أهله يظهر بظهوره أهله المتمسكين به ولن يقدر أحد مهما كانت لن يقدر أحد مهما كانت قوته مهما كانت امكانياته أن ينهي المشروع الإلهي أبدا أن يقضي على هدى الله وعلى دينه أبدا لن يستطيع أحد مهما حاول مهما عمل لأن الله هو جل وعلى تكفل بأن يكون هو من ينصر هذا الدين من يهيئ له من عباده رجال أنصار له حملة له حماة له يتمسكون به وينالون شرف نصرته فيظهرون هم بظهوره ويغلبون بغلبته ويعتزون بعزته.

عندما يكون هناك مكر وخداع عندما يكون هناك تآمر من كل الطغاة والجبابرة والمستكبرين من أجل القضاء على دين الله فإن الله يتدخل أيضا عندما يمكرون الله يمكر الله يمكر ومكرهم يبور ومكر الله هو الغالب والقاهر.

هذا الدين معه الله ومن ينطلق على هذا الدين لنصرة هذا الدين فإن الله معه وبالله سينتصر وبمكر الله سيبور مكر الأخرين في أي عصر وفي أي جيل في أي زمن في أي منطقة في أي دولة ويمكرون فيما كانوا يمكرون لتآمر على هذا الدين وعلى نبيه العظيم كان الله يمكر ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ‹الأنفال٣٠› خير الماكرين ومكره هو الغالب وكيده هو الغالب جاء الإذن الإلهي والتوجيه الإلهي لرسول الله محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) بأن يهاجر من مكة.

أن الحق دائما يبقى له وجود ويبقى له أنصار :

ولنتطرق هنا إلى موضوع مهم جدا جدا بعض المجتمعات بعض المجتمعات وبعض المناطق لا تقبل بالحق ولا تتبع هدى الله وتتنصل سواء كرها للحق ناتجاً عن رغبة مع المتسلطين والمتكبرين في دنياهم أو خوفا منهم أحيانا كان البعض في مكة يقولون﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾‹القصص٥٧› سيقضى علينا) سننتهي.

البعض المجتمعات ترفض الحق وعلى أساس أنها مجتمعات ذكية البعض من المناطق ترفض الاستجابة لله واتباع هدى الله والقيام بنصرة الحق على أساس أنها مجتمعات ذكية لا تتورط في نصرة الحق وفي الصدام مع المستكبرين والطغاة وتظن أنها بذلك تكسب خيرا.

ولننظر فيما يتعلق بمكة هل خذلان أهل مكة للنبي وتمسكهم بأبو جهل وأبو سفيان والطغاة والمستكبرون في ذلك العصر أمثال زعماء العرب في عصرنا هذا هل تمسكهم بأولئك هل أضاع المشروع الإسلامي؟ هل قضى على رسالة الله هل انتهى الإسلام؟ لا. وهل فازوا خيرا وهل كسبوا خيرا من وراء ذلك؟ لا. كانوا هم الخاسرين جاء الأمر الإلهي للنبي بعد ثلاثة عشر سنة أمضاها لديهم وهو يذكر ويبلغ ويعمل بكل جهد على هدايتهم

في ذلك الوقت الذي كان ذلك المجتمع قد وصل إلى حالة رهيبة من الإعراض عن هدى الله والتمسك بالضلال والشرك والاتباع لطغاة والمجرمين والمستكبرين بدلا عن رسول الله محمد وبدلا عن هدى الله.

الله جل وعلى قال ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَـا بِكَافِرِينَ﴾ ﴿الأنعام٨٩﴾ وجاء الإذن للنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وقال الله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ ﴿الذاريات٥٤﴾ رحل عنهم محمد وخرج من بينهم بحماية إلهية بملائكة الله محيطة به أنزل جنودا لم تروها وبرعاية إلهية عظيمة تجاه الله من مكرهم وكيدهم وانتقل إلى مجتمع آخر هيئاه الله لأن ينال هو شرف النصرة وشرف الإسلام وشرف الحق وشرف الزكاء مجتمع يثرب مجتمع المدينة المنورة.

سنة الاستبدال:

الله عنده قرار أن يستبدل عندما يتخاذل مجتمع معين عن نصرة الحق، الحق دائما يبقى له وجود ويبقى له أنصار ويبقى له حملة وعندما يعرض تعرض مجتمعات معينة أو حتى على مستوى الأفراد الله يستبدل على مستوى الأفراد وعلى مستوى المجتمعات يعرض مجتمع فلا يقبل بالحق وحينها يهيئ الله ويقيظ مجتمعا آخر يقبل بالحق يتمسك به ويحظى بشرف نصرة الحق.

مجتمع يثرب مجتمع هناك معزول متناحر مقتتل مستضعف يحيط به قبائل أو مجتمعات يهودية كانت هناك تتربص الحق وهذا المجتمع يحظى هو بشرف أن يكون هو المجتمع الذي يكون ساحة أولى لقيام الإسلام وقيام كيان إسلامي عظيم ومجتمع إسلامي يسوده الإسلام بعظمة الإسلام بالعدل بالحق مجتمع خال من هيمنة وطغيان الطغاة والجبابرة والمستكبرين مجتمع يخضع لله ولا يخضع لغيره.

حيث كان أقوى شخص وأكبر شخص في رأس هذا المجتمع هو الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) كان هو نفسه مجرد متبع متبع

للهدى الله وليس متنفذ ولا متسلط ولا متغلب كان هو بنفسه كما يقول الله له وكما علمه أن يقول ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ‹الأحقاف٩› فكان هذا المجتمع الذي كان في المدينة والذي هاجر إليه النبي واحتضن احتضن الحق وكان الانصار شرف النصرة والإيمان ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ‹الحشر٩› كان لهم هذا الشرف الكبير وكان من المكاسب الكبيرة في المدينة المنورة في يثرب أن ألف الله بين قلوبهم انتهت لديهم حالة الفرقة حالة الشتات الظلم انتهى وزال الطغيان زال الفساد زال وبدلا عن الفساد حل الصلاح بدلا عن الشر حل الخير بدلا عن الرذيلة حل الزكاء الطهر والفلاح وأصبح مجتمعا متنورا ومدينة منورة منطقة لا يوجد فيها مكان لظلم ولا للطغيان ولا للإجرام يسودها الحق يسودها العدل يسودها الخير يسودها الفلاح يسودها دين الله وأمر الله وحكم الله مجتمعا عزيزا مجتمعا كريما مجتمعا صالحا فكانت هناك أول نواه لدين الإسلامي نواه راسخة وقوية متماسكة داخليا ونواه مثل في الإسلام في واقع حياتها فأصبح هو نظامه يقوده محمد على رأسه محمد أمة على رأسه محمد يقودها يربيها يزكيها يزرع فيها الخير والفلاح يجعل منها أمة عظيمة كريمة عزيزة لها أهداف عظيمة ولها رسالة عظيمة ولها مهمة كبيرة ومقدسة ومتجندة أمة متجندة مع الله من أجل تلك الرسالة ولحمايتها وللعمل على نشرها في العلمين.

***

أُسُسُ المجتمع الجديد في المدينة

برزت أسس المجتمعِ الجديد بالمدينة في عدة قضايا أهمها:

أولاً: بناء المسجدِ

فقد بدأ العمل في بناء المسجد وعمل فيه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بنفسه وعمل معه المهاجرون والأنصار.

ومن على منبر هذا المسجد كان يوجِّه رسول الله محمد ذلك النور الإلهي وحي الله الطري المُنزل وبه يعالج قلوباً مرضى ويشفي نفوساً ويزكي نفوساً ويطهِّر قلوباً ويقوِّم سلوكاً وعملاً، يبني هذه الأمة ويصلحها وفي نفس الوقت كان قاعدة يزرع فيها روح الجهاد والتضحية في نفوس المسلمين.

بنى المسجد كقاعدة عسكرية، قاعدة للجهاد، بنى المسجد ليؤاخي - داخل هذا المسجد - بين أصحابه، بين جموع المهاجرين والأنصار، بنى المسجد ليكون منطلقا ليوحد بين الأمة، بنى المسجد لينطلق منه لمقارعة الظلم والطغيان.

ومن هذا المسجد المبارك الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) يقدم لأمته ومن خلالها للعالم كله مشروع الله منهجاً يتضمن التعليمات الإلهية فيما تعمل الأمة وفيما تترك وفي تحديد مسؤولياتها في الحياة وفي تبصيرها بواقع الحياة وما فيه وفي علاقتها بالله سبحانه وتعالى فكان منهجاً إلهياً مثل النور والهدى والبصائر التي على ضوئها تبني الأمة واقعها وتتحرك في مواقفها على أساسه.

قدم المشروع القرآني مشروعاً للحياة ومثل هو القيادة التي تتحرك على أساس القرآن الكريم وتعكس تعاليمه وقيمه قولًا وفعلًا وسلوكًا ومواقفًا.

ثانياً: تقوية الجبهة الداخلية من خلال:

١. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

٢. عقد معاهدات مع بقية سكان المدينة المنورة مع بيوتات أهل المدينة وليس مع اليهود مباشرة وقد أشار السيد حسين رضوان الله عليه إلى حقيقة ما حصل في محاضرة [يوم القدس العالمي] بقوله:

حتى في هجرة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) من مكة إلى المدينة يتحدثون في كتب السيرة عن [صلحه مع اليهود] يتحدثون عن صلح وقع منه مع اليهود!. وعندما ترجع أنت لتقرأ الوثيقة التي صاغها الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) بعد أن وصل المدينة المنورة بسرعة صاغها، وذكر فيها كل بطون سكان المدينة، كل بيوتات القبائل الساكنة في المدينة وحولها، وثيقة ليست بصدد الصلح مع اليهود، ولا حول الصلح مع اليهود.

اليهود كانوا حول المدينة حلفاء لبيوت أو أشخاص من الأوس والخزرج داخل المدينة، حلفاء لهم مرتبطين بمعاهدات معهم كأتباع لهم. الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) عندما اتجه من مكة إلى المدينة مهاجراً، اتجه ليبني قاعدةً ينطلق منها للجهاد، وإعلان دولته، وإعلان دعوته؛ لينطلق منها للجهاد ضد كل المعارضين لدعوته التي بعث بها، فعمل على أن يجعل المدينة قاعدةً مستقرة.

اقرءوا هذه الوثيقة لن تجدوا فيها مصالحة مع اليهود، إنما باعتبارهم حلفاء لمن داخل المدينة من أوس أو خزرج أو أشخاص من كبارهم يسري على اليهود ما يسري على حلفائهم. وهذا شيء طبيعي في المواثيق وفي المعاهدات العربية أنه يسري على الأولياء - الذين يسمونهم وَلِي آل فلان أو حليف آل فلان - يسري عليهم ما يسري على من هو في حلفه، أو في ولائه، أو في معاهدةٍ معه.

ثالثاً: بناء الدولة

تحرك (صلوات الله عليه وعلى آله) بكل جدية وفاعلية في المدينة المنورة لبناء دولة قوية عادلة بمواصفات عظيمة، وأخلاق عالية، تُجسِّد المبادئ التي يدعو إليها ويعمل على إقامتها، وتدل على عظمة هذا الدين، وعلى ثمرة الارتباط بالله وهديه.

كان (صلوات الله عليه وعلى آله) في سلوكه وتعامله على خلق عظيم، يتمتع بمواصفات عظيمة وبمكارم الأخلاق العظيمة على أعظم مستوى، وعلى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه بشر، قائد عظيم، منقذ عظيم، رجل عظيم، على خلق عظيم، بهدي عظيم؛ ليبني أمة عظيمة عزيزة، يقول الله جل شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

وبهذه المزايا العظيمة، وبهذه الصفات الحميدة، من موقع الشعور بالمسؤولية، من موقع الرأفة والرحمة، ومن حالة الحرص الشديد على إنقاذ الناس، على دفع الضرر عنهم، على بناء هذه الأمة بناءً عظيماً تكون على مستوى ممتنعة مما يذلها، مما يضرها، مما يُهيِّئ لهيمنة الأعداء عليها، فيما يدفع الشر عنها، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾،

وبذل جهداً كبيراً، لم يألوا جهداً، وليس من جانبه أي تقصير، بهذا الحرص، بهذه الرأفة العظيمة التي كان عليها ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ‹آل عمران:١٥٩›، بالرأفة والرحمة والحرص على الأمة كان يتحرك بمنهج الله مربياً وساعياً على بناء هذه الأمة، إلى بنائها بناءً عظيماً حتى وصف الله ذلك المجتمع الذي بناه محمد رسول الله بقوله:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ ‹الفتح:٢٩› رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ومن معه يقتدون به، يتبعونه، لديهم الشدة، هم أشداء، لكن على من؟ تلك الشدة، تلك القسوة على من؟ على الكفار، على الكفار، على الشر، على الباطل، على الظلم، على الطغيان، أشداء على الكفار؛ لأنه لا يُجدي أمام الكفار إلا الشدة، الشدة في مواجهة الكفار هي الحكمة، هي الحكمة التي أرشد إليها الله، وأمر بها الله؛ لأن الكفار لا يمتلكون قِيَم، وليس فيهم إنسانية، ليس لديهم رحمة، ولا لديهم ضمير، فهم حينما لا يكون هناك شدة في مواجهتهم وعليهم، حينما يُعاملون بالرحمة، ويُعاملون بالدبلوماسية والعلاقات وما شابه ذلك يكونون هم من يسطون على الأمة، من يفتكون بالأمة، من يضربون الأمة، من يذلّون الأمة، وهذا واقع، هذا واقع أمام الكفار من اليهود والنصارى، الأمريكيين والإسرائيليين، هؤلاء هل أجدى تلك السياسة التي يعتمد عليها الحكام العرب؟ الليونة، اللطف، الدبلوماسية، العلاقات، مد اليد للسلام، وما أشبه ذلك هل أجدت؟ لم تُجد شيئاً، لم تدفع ضُراً ولم تكشف شراً، ولا دفعت عن الأمة أي خطر أبداً.

الله جل شأنه أرشدنا إلى سلوك يتصف به محمد، ومنهج اعتمده محمد ومن معه، منهج من الله قُدِّم في كتب الله السابقة كما قُدِّم في القرآن الكريم ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ﴾ ليس لديهم الضعف، ولا الوهن ولا الذلّة ولا العجز أبداً.

أما في داخل المجتمع المسلم، المجتمع الإيماني المتربي بتربية محمد، المتمسك بنهج محمد، الآخذ بتعاليم محمد، ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ ‹الفتح:٢٩› داخلهم الرحمة، الرحمة في كل أشكالها، في تعاملهم مع بعضهم البعض، في اهتمامهم ببعضهم البعض، في طريقة تعاطيهم مع قضاياهم الداخلية، الإيثار، التعاون، التكاتف، ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾، لا مكان للشدة فيما بينهم، مجتمع متوحد، متكاتف، معتصم وقوي، ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾، أما خضوعهم أما ركوعهم أما تذللهم أمام الله، أمام الله ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾، لا يذهبون إلى البيت الأبيض في أمريكا ليحنوا رؤوسهم، لا يتعلمون هذا ولا يفعلونه، لا يحنون رؤوسهم لا لطواغيت ولا لمجرمين، ولا لمستكبرين أبداً ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً﴾ ‹الفتح: ٢٩›.

* * *

مرحلة الصراع المسلح

بعد هجرة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) تحول مجتمع مكة المجتمع الذي لم يستجب للحق لم يستجب لله وخسر بذلك خسارة كبيرة تحول هو بدلا من أن يكتفي بأن يكون مجتمعا يخذل الحق إلى مجتمع محارب وبدأ مشوار كبير من الصراع والحروب والمعارك والوقائع الكبيرة مع الإسلام.

غزوة بدر الكبرى

(١٧ رمضان ٢هـ - يناير ٦٢٤م)

لا يخفى موقف قريش العدائي من رسالة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وممن التحق بهذا الدين إلى درجة اضطر فيها النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يهاجر من مكة إلى المدينة بعد أن وصلت بهم الحال إلى محاولة قتله (صلوات الله عليه وعلى آله) وظل ذلك الموقف العدائي حتى بعد الهجرة فكانوا يستخدمون نفوذهم وقوتهم وتسلطهم على أبناء الجزيرة العربية في الصد عن سبيل الله مما جعل المواجهة العسكرية مع هؤلاء الطواغيت شيء لا بد منه كما ذكر الله سبحانه وتعالى.

لأن الحرب بنفسها تكون أحيانا شيئاً ضرورياً في إطار التدبير الإلهي العام لإقامة دين الله ، فإرادة الله أحيانا تقتضي أن يتخذ هو ويهيئ لتنفيذ إرادته ومشيئته ويهيئ الأسباب والعوامل التي تدفع الطرفين إلى القتال: ﴿وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ﴿لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ لأن نتائج المعركة هي بيده سبحانه وتعالى.

ولذلك كان الخروج إلى هذه المعركة بتوجيهات وترتيبات إلهية كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ ‹الأنفال٥›.

النبي كان قائداً عظيماً:

النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) كان قائدا عظيماً هو يمثل أعظم قائد عرفته البشرية على الإطلاق ولذلك كان مدركاً بأنه لا بد من المواجهة مع هؤلاء المشركين وغيرهم ممن لا يريد خيراً للبشرية ولا يريد أن تتحرر البشرية ممن يرون في حريتها وإنقاذها من الضلال تهديداً لمصالحهم الشخصية الضيقة، وهكذا هم الطواغيت في كل زمان ومكان يعمدون إلى أن تظل الأمة ضالة ضائعة غبية لتظل تحت سيطرتهم وطغيانهم.

ولمعرفة الرسول بأن هناك من يتربص بهذا الدين الشر والعدوان كان يجهز نفسه لمواجهة كل هذه التهديدات فكان يبعث بمجموعات للرصد والرقابة ومن خلال هؤلاء أبلغ النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في السنة الثانية للهجرة بعودة قافلة كبيرة جداً لقريش من الشام حيث تقول الروايات أنه لا يوجد أحد من أهل مكة إلا ومعه فيها نصيب. فكان رسول الله يريد ضرب طواغيت مكة اقتصادياً ليردعهم عن محاربة الإسلام والتضييق على المسلمين.

وكان المسلمون أمام حالتين: إما مواجهة القافلة التي يمثل استهدافها ضربة كبيرة لقريش اقتصاديا لأنهم يعتمدون في قوتهم العسكرية على الجانب المادي وهذه ستمثل ضربة كبيرة لهم إضافة إلى أنه كان ضمن القافلة أبو سفيان بن حرب قائد المشركين هو ومجموعة معه سهل القضاء عليهم.

فالمسلمون خرجوا وهم أمام فائدتين: الضربة الإقتصادية للعدو ويتقوون هم اقتصادياً وكانوا ينظرون بأنها فرصة للسيطرة على أبي سفيان نفسه وفي قتله أو أسره ضربة كبيرة للمشركين .. وهكذا تحركوا على هذا الأساس.

أبو سفيان جاءت له الأخبار بتحرك النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) فأرسل رسولا إلى مكة يبلغ قريش بذلك ويستنفر أهل مكة وسلك بالقافلة طريقاً أخرى. وعندما وصل الخبر إلى أهل مكة أثارهم ذلك جداً فكان الاستنفار كبيراً في مكة وخرجوا بجيش كبير في عدده وعدته وإمكانياته بالنسبة لإمكانيات النبي (صلوات الله عليه وعلى آله).

وأقبلت قريش تشق طريقها نحو بدر فلا تنزل منزلاً إلا وتنحر الجزور وتشرب الشراب وتغنيهم القيان.

أبو سفيان يرسل رسولاً إلى قريش ولكن هذه المرة يخبرهم بنجاة القافلة ويطلب منهم الرجوع إلى مكة.

أبو جهل مخاطباً أشراف قريش عندما وصلهم رسول أبي سفيان: لا والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيم فيها ثلاثاً ننحر فيها الجزور ونشرب الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع العرب بمسيرنا فلا تزال تهابنا.

وقد أنزل الله في ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ‹الأنفال:٤٧›.

الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وصلته الأخبار بأن القافلة قد نجت وأن قريشاً قد خرجت لاستئصال المسلمين ولكنه كان يسير وفق ترتيبات إلهية في الموضوع، كل هذه الترتيبات تلمس فيها التدبير الإلهي وهنا يجمع المسلمين ويستشيرهم في الموضوع.

رسـول الله: «أيها الناس: إن قريشاً قد أقبلت في جيش لحربنا فما ترون».

المقداد: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل (إذهب أنـت وربـك فقاتلا إنا هـا هنا قاعدون) ولكـن نقول إذهب أنـت وربك إنا معكما مقاتلون.

رسول الله: «أشيروا علي» وكان يريد الأنصار.

سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

رسول الله: (أجل).

سعـد بن معـاذ: قد آمنا بك وصدقناك فامضِ يـا رسول الله فوالذي بعثـك بالحـق لـو استعرضـت بنا هذا البحـر فخضته لخضنـاه معك إنا لصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء.

فسـر رسـول الله (صلـوات الله عليـه وعلى آلـه) بهذا الجـواب القوي وأثلج صدره وهو جواب كل مؤمن قوي في إيمانه مخلص لله في عمله.

رسول الله: (سيروا على بركة الله فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنـي انظـر إلـى مصـارع القـوم) ويتلـو عليهـم ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْـدَى الطَّائِفَتَيْـنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْـرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ‹الأنفال:٧›.

لقـد وعـد الله سبحانـه وتعالـى المسلميـن بـأن إحـدى الطائفتيـن ستكـون لهـم إمـا القافلـة أو النصـر فـي المعركـة ولكـن الرغبـة كانـت (الغنائـم) كما قـال الله سبحانـه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْـدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ‹الأنفال٧›.

هنا التدبير الإلهي لم يأت على مزاج النفوس والأهواء لأن الهدف كان أكبر من مجرد قافلة وإنما كان لغرض كبير وهو إحقاق الحق وإبطال الباطل . وإحقاق الحق يعني سيادة المشروع الديني في واقع الحياة.

وهكذا التقى الفريقان في وادي بدر بينما نجت القافلة. المسلمون كانت عدتهم قليلة جداً قياسا إلى ما عند الأعداء وحتى الإمكانيات. وكان هناك من الطرفين من لا يريد الحرب لكن الله كان يريد ذلك لذلك كانت المواجهة شيء لا بد منه وكما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ‹الأنفال٤٢›.

وقبل المعركة حدثت تدخلات إلهية كانت تدفع وتشجع على المواجهة منها:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ ‹الأنفال٤٤›.

كذلك ما يتعلق بالنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) يقول: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ‹الأنفال٤٣›.

يقول المؤرخون بأن الفريقان باتا قريباً من بعضهما ولا يعلم أحدهما بالآخر.

رسول الله: «**إنطلق يا علي أنت والزبير وبعض الرجال فأتوني بأخبار عن الماء**».

انطلقت المجموعة إلى الماء فوجدوا عليه بعض رجال قريش فأسروهم وأفلت بعضهم فأخبروا قريشاً فاستاءوا وباتوا يتحارسون فجا علي والزبير بالسقاة إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فسألهم: «**أين قريش؟**».

أجاب السقاة: خلف هذا الكثيب.

الرسول: «**كم عددهم؟**».

السقاة: لا ندري وهم كثير.

رسول الله: «**كم ينحرون كل يوم؟**».

السقاة: ينحرون يومياً عشرة أباعر ويوماً تسعة.

رسول الله القائد الحكيم: «**هم ما بين الألف والتسعمائة**».

ثم قال (صلوات الله عليه وعلى آله)للمسلمين: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها**».

هنا الله سبحانه وتعالى يذّكر المسلمين بحالهم يوم كانوا في مكة وما صاروا إليه من العزة والكرامة والتمكين بعد الهجرة لكي يذكروا الله كثيراً ويستقيموا ويثبتوا عند لقاء عدوهم قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾‹الأنفال:٢٦›.

لم يعد يفصل بين الجيشين إلا مسافة قليلة تقدر بليلة واحدة.

الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) يخطط للمعركة ويحث المسلمين على الصبر والثبات ثم يأمرهم أن يتحركوا ليسبقوا

المشركيـن إلـى مصـدر المـاء وهي بئر بـدر، فتحرك جيش المسلمين وسيطروا على الماء.

الرسـول: يتفقـد المـكان ويرسـم الخطـط وأمـر الجيش بالتمركز فـي العُـدْوَةِ الدنيـا من الـوادي وأن يستقبلـوا المغـرب والشمس خلفهم وأمرهم ببناء حوض للماء يشربون منه حال المعركة.

ثـم بات المسلمـون ليلتهم يصلون ويذكـرون الله ويجهزون سيوفهم وسلاحهـم ويدعـون ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّـتْ أَقْدَامَنَا وَانصُـرْنَا عَلَـى الْقَـوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ‹البقـرة: ٢٥٠› وأخـذوا يتجهـزون ويستعـدون ليـوم الغـد فيغشاهم النعاس فينامون ليلتهم فـي سكينة واطمئنان كأنهم في منازلهم وهي تثبيت من الله سبحانه وتعالى.

ثـم أنـزل عليهـم الله سبحانه وتعالى غيثـاً من السمـاء لِيُلَطِّفَ الجو ويثبـت الأرض حتـى لا تغوص الأقـدم فيها حال المعركـة عكس قريش فإنـه حصـل لهم من المطر ما آذاهم ولـم يكن بين الجيشين إلا مسافة قليلـة وذلـك قـول الله سبحانـه وتعالـى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُـمُ النُّعَاسَ أَمَنَـةً مِّنْـهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُـم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ ‹الأنفال: ١١›.

طلع الفجر فجر يوم جديد غيرَّ الله فيه موازين القوى وتغيرت فيه الأمـور لصالـح المسلميـن بنصر الله لهم، إنه فجر يـوم العزة والكرامة والنصـر الإلهـي، أشرقـت شمـس ذلك اليـوم العظيـم على ساحـة العزة والشـرف تشع على ميـدان الجهاد الاستبسال بضوئهـا الناصع البياض لترسم للأجيال في تاريخهم يوماً مشهوداً.

بدأت طبول الحرب تدق.

والقائد العظيم والمعلم المصطفى محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) في كل ميدان يجهز الجيش، يرص الصفوف، يرسم الخطط، يعطي رايته علي بن أبي طالب، ويعطي لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس إلى سعد بن معاذ، يحث الجميع على ذكر الله وإخلاص العمل لله ويتلو عليهم من كتاب الله.

أقبل المشركون فكان لا بد لهم من النزول بالعدوة القصوى من الوادي واستقبال الشمس؛ لأن المسلمين قد سبقوهم والرسول والمسلمون ينظرون إليهم لوضع اللمسات الأخيرة للمعركة.

أبو جهل: ينظر إلى جيش المسلمين في غرور وتكبر ويُحدِّث مَنْ حوله ولا يدري كيف سيكون مصيره بعد ساعات فيقول: ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد.

عتبة: أترى لهم كميناً أو مدداً.

فبعثوا عمير بن وهب الجمحى وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حول معسكر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ثم رجع فقال: القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلاً وليس لهم كمين ولا مدد ولكن الولايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم يتلمضون تلمض الأفاعي ما أرى أنهم يولون حتى يُقْتلوا ولا يُقْتلون حتى يَقْتلوا بعددهم.

أبو جهل: كذبت وجبنت.

فنزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ ‹الأنفال: ٦١› فبعث رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) إليهم أن إرجعوا فلئن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي.

عتبة: ما رد هذا قوم قط فأفلحوا ثم ركب جملاً أحمر وخطب خطبةً قال فيها: يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر فإن يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره .

وتحمل عتبة دم الحضرمي الذي قتله المسلمون بنخلة على أن يرجعوا.

أبو جهل: كلا لن نرجع أجبنت وانتفخ سحرك.

عتبة: أمثلي يجبن ﴿وشتم أبا جهل وأخذته حمية الجاهلية فقرر القتال معهم﴾.

واصطف المشركون للقتال وتجهزوا واستعدوا وبدأت المناوشة بين الطرفين.

الأسود المخزومي: أقسم باللات والعزى لأهدمن الحوض الذي بناه المسلمون للشرب فشدَّ على فرسه حتى دنا من الحوض فاستقبله أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فضربه ضربة أطن قدمه فقطعها.

فزحف إلى الحوض فهدمه برجله الأخرى فعطف عليه حمزة فقتله فكان أول قتيل من المشركين.

فكبر المصطفى (صلوات الله عليه وعلى آله) واستغاث الله، فكبر المسلمون وأخذوا يجأرون بالدعاء ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾‹البقرة:٢٥٠› فميدان المعركة هو محراب الدعاء المستجاب.

وقد أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾‹الأنفال:٩›.

وتحمس للقتال عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وولده الوليد بن عتبة وأخذتهم حمية الجاهلية وخرجوا من بين صفوف المشركين مستلين سيوفهم فتقدموا إلى جيش المسلمين ينادون من يبرز لنا؟ ألا هل من مبارز؟

فتقدم للبراز ثلاثة من الأنصار.

فنادى منادي المشركين يا محمد أَخْرِجْ لنا أكفاءنا من بني قومنا.

القائد العظيم يقدم أقرب الناس إليه في سبيل إعلاء كلمة الله ومقارعة المستكبرين فقال: «**قم يا حمزة بن عبد المطلب قم يا علي بن أبي طالب قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب**» فخرج حمزة وعلي وعبيدة متقلدين سيوفهم وتقدموا نحو الميدان في ثبات وإيمان واستبسال وعليهم لباس أبيض حتى وقفوا أمامهم.

عتبة: تكلموا نعرفكم فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم.

حمزة: لم تعد تعرفنا أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

عتبة: كفوٌ كريم وأنا أسد الحلفاء ومن هاذان معك.

حمزة: علي وعبيدة بن الحارث.

عتبة: كفوان كريمان.

فبرز حمزة لعتبة وعبيدة ابن الحارث لشيبة وبرز علي للوليد.

وبدأت المبارزة بين الفريقين في وسط الميدان فالكل في حالة من الذهول والترقب عما ستسفر عنه المبارزة فما لبثوا لحظات إلا وعلي بن أبي طالب يتحفهم بالانتصار الأول عندما ضرب الوليد على عاتقه وأخرج السيف من إبطه وضربه ثانية فصرعه فبدت ملامح النصر تلوح في الأفق.

القلوب تخفق وتزداد وتزداد نبضات القلب لحظة لحظة وتستمر المبارزة فإذا بحمزة يضرب عدو الله عتبة ضربةً صرعته ولم يتبقَ إلا عبيدة وخصمه وتستمر المبارزة فيختلفان ضربتين، ضربه عبيدة ضربة على رأسه فلقت هامته، وشيبة ضرب عبيدة ضربة قطعت ساقه وانتهت المبارزة بهزيمة ساحقة للمشركين ونصر عظيم للمسلمين فارتفعت هتافات التكبير والتهليل من معسكر المسلمين واستبشروا بنصر الله وتأييده بينما قريش بمقتلهم ذلت وشعرت بالهزيمة والخزي.

والتحم الجيشان وجهاً لوجه وخاض أنصار الله وأنصار رسوله المعركة كالأسود متلهفين للشهادة ينتزعون أرواح المشركين انتزاعاً، شعارهم (يا منصور أمت) تحفهم ملائكة الله وتثبتهم.

وأصوات التكبير ترتفع من كل ناحية وحمزة أسد الله وعلي الكرار يصولان ويجولان في أرض المعركة كالليوث الضارية يقطعون رؤوس أئمة الكفر قطعاً ويحمى وطيس المعركة فيخرج القائد الحنون من عرينه ويخوض المعركة بنفسه وهو يقول: «**سيهزم الجمع ويولون الدبر والذي نفس محمد بيده ما يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً إلا أدخله الله الجنة**».

فسارع المسلمون في القتال وأبلو بلاءً حسناً واقتتل الناس قتالاً شديداً فاخذ رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كفا من التراب فرمى بها نحو القوم وقال: «**شاهت الوجوه اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم**» ولما جاء وقت الظهيرة انهزم المشركون وولوا هاربين لا يلوون على شيء يرمون الدروع عن أجسادهم لشدة خوفهم وهلعهم على الرغم من أنهم كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين وأقوى تسليحاً ولكن

النصر بيد الله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ‹البقرة:٢٤٩› وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ‹آل عمران:١٢٣›.

وما وضعت الحرب أوزارها وانجلت الغبرة عن أرض المعركة إلا وقد سقط فيها من جيش المشركين وصناديدها وزعمائها ٧٠ رجلاً أضف إلى ذلك من جرح ٧٤ أسيراً.

قتل منهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٢٤ وفي رواية أخرى ٣٥ سوى من شارك في قتله مع غيره.

وقتل في هذه الغزوة فرعون قريش [أبو جهل ولما وقف عليه رسول الله مقتولاً قال: «الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله» وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط والكثير من زعماء قريش.

أما الذين اختارهم الله من المسلمين في ذلك اليوم ١٤ رجلاً من الأنصار و٦ من المهاجرين شهداء عند ربهم يرزقون.

ولم يتم التمثيل بأي جثة من المشركين على الرغم مما حصل منهم بل حتى أن الرسول أمر بجمع قتلاهم ووقف عليهم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وخاطبهم رجلاً رجلاً: «يا عتبة يا شيبة يا أمية بن خلف يا أبا جهل هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً إني وجدت ما وعد ربي حقاً بئس القوم كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس».

حجم التدخل الإلهي:

ـ أمد الله المسلمين بالملائكة:

لقد كان حجم التدخل الإلهي في هذه المعركة كبيراً جداً بالشكل الذي جعل سير المعركة لصالح المستضعفين. فعندما لجأ المسلمون إلى الله القوي العزيز أمدهم بنصره وتأييده ورعايته بما جعل معنوياتهم عالية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ‹الأنفال٩› حتى نوع الدعاء يدل على الحالة التي كان يعيشها المسلمون.

ـ النعاس ونزول المطر:

النعاس ونزول المطر كان له دور كبير وبارز ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ ‹الأنفال١١›

ـ وعند المواجهة يتدخل هو سبحانه وتعالى:

وعند المواجهة يتدخل الله بصورة أكبر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ‹الأنفال١٢›.

تحدث القرآن الكريم عن الرعاية الإلهية والتدخل لمن يسيرون في سبيله وكيف يكون التدخل الإلهي في المسيرة الجهادية فالتدخل الإلهي يكون له الأثر الكبير في حسم هذا الصراع وفي نتائجه.. وله أشكال متعددة.

ومهمة التدخل الإلهي أن يرفع الجانب المعنوي لدى الإنسان ويسهم بشكل كبير في أن تكون معنوياتك قوية وعالية لأن الجانب المعنوي يعتبر أساسي لو كانت إمكانيات الناس كيفما كانت ومعنوياتهم منهارة لن يستفيدوا منها إذا انهار عند الإنسان الجانب المعنوي فالله يؤيد و بشكل كبير بما يؤدي إلى رفع معنويات المجاهدين في سبيل الله حتى يدخلوا إلى المعركة بنفوس ثابتة ومطمئنة.

ورجع المسلمون إلى المدينة في فرحة وسرور رافعين أصواتهم بهتافات التكبير لله فهو الذي بيده النصر والتأييد فهو أكبر من كل كبير.

أما قريش فعادت إلى مكة تجر أذيال الهزيمة والحسرة إلى درجة أن أبا لهب لما بلغه الخبر مرض من ساعته بالجذام ولم يلبث إلا سبعة أيام ومات.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة المشركين وقتل عدد كبير من الطواغيت وكسر شوكة الشرك في الجزيرة العربية بكلها .

وشكلت هذه المعركة نقلة نوعية في حياة الرسالة فقد قطع دابر الكافرين وكسرت شوكتهم وظهر المسلمون كقوة لا يستهان بها في الجزيرة العربية وأزيلت عقبة كبيرة تحول بين الناس وبين التفهم لهذا الدين وبدأ الناس يأتون هم إلى النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) ليعلنوا إسلامهم .

الدروس والعبر

أولاً: القـرآن الكريـم يقدم أحداث التاريخ كأحـداث مليئة بالدروس والعبـر لهـذه الأمة فـي كل جيل وفي كل عصر لأن رسـول الله نبي لأول هـذه الأمة وآخرها ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ‹الجمعـة٣› فتخطيطاتـه ومسيرته الجهادية هو يقـدم فيها الدروس للأمة إلـى يـوم القيامـة فلـم يكـن النبـي (صلـوات الله عليـه وعلى آلـه) يفكر لعصره فقط .. فالقرآن قدم الأحداث على هذا الأساس على أساس أنها أحـداث تعليميـة فـي كل عصر وليس فقـط للسنة الثانيـة للهجرة مثل واقعـة بـدر .. ولذلك لا يوجد حديث عن مكـة وقريش هنا وإنما حديث عـن إيمـان وكفـر، مؤمنين وكافريـن، أنصـار لله وأنصار الباطـل؛ لأنها قضيـة تبقـى دائمـا في كل زمـان وفي كل عصر علـى أساس أنها قضية مرتبطة في كل عصر.

فمن تلك الدروس:

ـ أن تطهير الأرض من الفساد قضية تقع على عاتق المؤمنين

فالقـرآن الكريم يقدم تطهير الأرض مـن الفساد قضية مهمة، تجد أن هذه المهمة فعلاً في معارك النبوة، في معركة بدر ماذا حكى الله عن قريش؟ أخرجهم إلـى المجزرة، إلى حيث ينحـرون، أخرجهم إلى حيث ينحـرون، ومهمـة رسول الله (صلـوات الله عليه وعلى آلـه) ومن معه أن يطهـروا الأرض مـن هؤلاء﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِيـنَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾‹آل عمران:١٢٧› هذه مهمة أساسية بالنسبة لمن يدينون بدين الله، أن الدين هو لتطهير النفوس وتطهير الأرض، تطهيرها من الخرافات، تطهيرها من الفاسدين، تطهير النفوس أولاً من الفساد.

- **الرصد والرقابة:**

أهمية الرصد والرقابة والمتابعة لتحركات الأعداء لمعرفة ما يخططون له وينوون القيام به اقتداء بالرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) الذي كان طوال مواجهته لأعداء الله يبعث بمجموعات لغرض الرصد والرقابة لكل تحركات الأعداء.

- **الاستغاثة القوية بالله الذي بيده النصر**

فالقرآن قدم الحالة الإيجابية للرجوع إلى الله في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾‹الأنفال٩›.

- **الرهان على الله والثقة بالله.**

أن يكون الرهان هو على الله وليس إلى العدد والعدة ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾‹آل عمران١٢٦›.

- **في بدر الرسول قدم درسا مهما لأهل البيت**

كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في غزواته يقدم أهل بيته هو، وكان أوائل الشهداء من أهل بيته في المعارك، في بدر كان الذين برزوا للمشركين في أول معركة هم من أهل بيته، من أقاربه، من أسرته.

- **قدم لنا القرآن الكريم كيف تكون نهاية الطواغيت .**

الصناديد أولئك الكبار عندما برزوا في بدر من صناديد قريش، أبطال، أليسوا ذووا أصول قوية وأبطال؟ هنا جعلهم ينهارون وشدّ

الآخرين، ولهذا بعضهم اندهش عندما رأى ابن مسعود على صدره وهو إنسان كان يعتبره لا شيء قال: [لقد ارتقيت مرتقا صعبا] وهو في بدر وقد صار يخور في دمه، فتح عينيه وإذا بابن مسعود فوق صدره جالس فقال: [لقد ارتقيت مرتقا صعبا] هذه قد تكون من هذا النوع، يرونهم فيحتقرونهم، يمر الشريط هذا الشريط خطير، هذا الشريط يأتي خطير، وإذا بمن كانوا يزدرونهم ويحتقرونهم ويعتبرون أنهم لا شيء وفي الأخير يرون هذا الدين نفسه لا شيء إذا ما هم فيه هم، وما هم مستعدين أن يكونوا فيه إلا بأن يكون هناك إملاءات معينة، رأوهم فوق صدورهم في بدر!.

ـ النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) قدم للأمة درسا مهما في الصراع هو أن تكون أمة مستقلة

يقول السيد حسين رضوان الله في الدرس الثاني من دروس آل عمران:

الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمنا بأن دينه يستطيع أن يجعلنا أمة مستقلة، تقف على قدميها، عزيزة، رافعة رأسها، تقهر الأمم الأخرى، ما الذي يحصل الآن؟ أليس كل العرب يتجهون إلى أمريكا لتنقذهم من إسرائيل؟ ولو أن أمريكا هي المحتلة وإسرائيل هناك للجئوا إلى إسرائيل تنقذهم من أمريكا! يلجئون إلى أمريكا وروسيا راعيتا السلام أن تنقذهم من إسرائيل.

النظرة القاصرة التي أراد الله أن يمسحها من أذهان العرب - لو تربوا على دينه، لو تربوا على نهج نبيه (صلوات الله عليه وعلى آله)، لو عرفوا سيرته وهو في جهاده من بدر إلى آخر غزوة لم يلجأ إلى طرف

آخـر، لـم يلجأ إلى الفرسـ، أو يلجأ إلى الروم، وهمـا القوتان التي كانت تمثـل القـوى العظمـى فـي العالم في ذلـك العصر لم يلجـأ إلى الفرس ليساعـدوه ضـد الـروم، ولا إلـى الـروم ليساعـدوه ضد الفرس، ولا إلى الفرس ليساعـدوه علـى قريش، ولا إلى الـروم ليساعدوه علـى قريش، ربى الأمة تربية توحي لها بأن باستطاعتها أن تقف على قدميها وتقارع الأمم الأخرى.

* * *

غزوة أُحُد

(السبت ٧ شوال ٣هـ يناير ٦٢٥م)

عاشت مكة مرارة الهزيمة التي لحقت بها في بدر وأعدوا عدتهم للانتقام من المسلمين وخرج أبو سفيان إلى قبائل العرب يطلبهم النصرة على محمد بعد أن عجزت قريش.

وأنفقت قريش أرباح القافلة لتجهيز جيش الشرك والضلال ليزحفوا على المدينة بثلاثة آلاف والنساء تسرن بعد الجيش يحملن (هبل) على ناقة.

رسول الله (صلوات الله عليه وآله) يرصد تحركات قريش

العباس بن عبد المطلب يبعث برسالة إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يخبره فيها بتحرك قريش وصلت رسالة العباس إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بخروج قريش فأرسل رجلين ليعرفا أين العدو وما هو عليه.

الرجلان: يا رسول الله إنهم في ذي الحليفة وقد أكلت إبلهم زروع أهل المدينة.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) صباحاً يخبر المسلمين بقوله: «**لقد رأيت في منامي أني في درع حصينة وأن بقراً تذبح وأن ثلماً في سيفي.. أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها وتحصنوا بها.. وأما البقر فيقتل رجال من أصحابي.. وأما الثلم فرجل من أهل بيتي يقتل**».

يقال: كان رأي رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) هو: أن يبقوا في المدينة، ويقاتلوهم في المدينة، ورأي آخرين، وكانوا - كما يشير بعض الكتاب - شباباً، عندهم طموح، قالوا: نخرج نلقاهم. رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يقال كان رأيه البقاء في المدينة، لكن في الأخير عندما رأى أن الأكثرية من الناس المقاتلين لديهم رغبة في الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة دخل ولبس لباس الحرب.

ولما خرج من منزله لمسوا في وجهه أنه ربما ما كان رأيه الخروج، فحاولوا إذا كان بالإمكان أن يعدل عن رأيه، فقال (صلوات الله عليه وعلى آله): لا ينبغي لنبي إن لبس لامة حربه أن يرجع حتى يخرج فيقاتل حتى يفتح الله بينه وبين عدوه. ثم خرج.

فخطب فيهم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وحثهم على الجهاد، ثم دخل بيته ولبس عمامته وتقلد سيفه، ووضع القوس والسهام على جنبه وألقى الترس على ظهره فخرج إليهم.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): «**هاتوا ثلاثة رماح للألوية فلواء المهاجرين بيد علي ولواء الأوس بيد أسيد بن خضير، ولواء الخزرج بيد الخباب بن المنذر**».

تحرك رسول الله (صلوات الله عليه وآله) وعسكر بهم في خارج المدينة وأخذ رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يستعرض الجيش وجاهزيته.

عبد الله بن أبي زعيم المنافقين يعود بثلث الجيش بعد أن قال: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ارجعوا أيها الناس. فرجع معه ثلاثمائة من المنافقين وهم ثلث الجيش.

فخشيت طائفة من المسلمين الفشل بسبب نقصان المنافقين.

فقرأ رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) على المسلمين قول الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ‹التوبة:٤٧›.

وتتولى كتيبة محمد بن مسلمة حراسة المعسكر في تلك الليلة.

فرقة الاستطلاع: يا رسول الله إن المشركين نزلوا بالقرب من جبل أحد.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) صباحاً يجعل من يعرف طريقاً غير مكشوفة دليلاً.

في أرض المعركة: رسول الله القائد العسكري المحنك:

بعد أن ألقى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) نظرة فاحصة لتشكيلة جيش العدو أخذ هذا القائد العسكري الفذ يصف الصفوف كالبنيان المرصوص.

رسول الله صلوات (صلوات الله عليه وعلى آله) يجعل جبل أحد خلف ظهره ويضع الرماة في ثغرة قائلاً: «**احموا ظهورنا لا يأتون من خلفنا وانضحوهم بالنبل إنا لا نزال غالبين ما دمتم في مكانكم**».

رسول الله يتوجه إلى الجيش ويحثهم على الصبر واليقين والجد والنشاط.

وكانت دفوف الحرب تضربها نساء المشركين وجيش المشركين يزحف فلما أخرجت راية المشركين للمبارزة أمر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) علياً (عليه السلام) أن يتقدم لمناجزته.

علي (عليه السلام) مستلاً سيفه ويرفع صوته بالتكبير ويقطع رجل طلحة فكبر المسلمون بعده وسقطت راية المشركين.

يحمل المشركون طلحة جثة هامدة ويرفع الراية أخوه سعيد بن أبي طلحة.

سعيد: هل لك يا علي في المبارزة؟

علي (عليه السلام) ينطلق على فرسه إلى سعيد وبحركة قتالية ماهرة يرديه قتيلاً ليلحق بأخيه إلى جهنم وبئس المصير.

ويكبر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بصوتٍ عالٍ فيكبر المسلمون بعده بقوة.

وكان الحمزة (رضي الله عنه) هو الحامل للراية انطَلَق كالصاعقة لتسقط راية المشركين فيعلو التكبير ويخيم السكوت على المشركين من هول ما رأوا.

فأخذ أبو سفيان يحفز بني عبد الدار على حمل الراية ولكن كل من حملها كان علي (عليه السلام) أو حمزة (رضي الله عنه) له بالمرصاد حتى بلغ قتلى الراية أحد عشر قتيلاً وسقطت الراية زمناً لم يجرؤ على رفعها أحد.

فكبر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وحمل على المشركين وهب وراءه المسلمون هبة رجل واحد فأخذ الجيش المشرك يتفكك ويفقد ترابط صفوفه وفي زمن يسير بدأ أولهم بالهرب وأخذ الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) والمسلمون يحصدون أرواح المشركين الذين تركوا أمتعتهم غنائم لينشغل المسلمون بحملها ويتركونهم.

وفي أثناء ذلك كان خالد بن الوليد بكتيبة من خيل المشركين يحاول الالتفاف على المسلمين من الخلف إلا أن عبد الله بن جبير وخمسين من الرماة ينضحون الخيل بالسهام ويمنعون الخيل من

التقدم حتى كاد اليأس يدب في نفوسهم وفجأةً توقفت السهام.

عبد الله بن جبير (رضي الله عنه): ما لكم لا تلزمون أماكنكم؟.

أحد الرماة: ألا ترى انهزام المشركين والناس يجمعون الغنائم.. هيا لنجمع الغنائم معهم.

عبد الله بن جبير (رضي الله عنه): لقد سمعتم رسول (صلوات الله عليه وعلى آله) حين قال: «**إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا أماكنكم**».

ثم وعظهم: فأطيعوا رسول الله (صلوات الله عليه وآله) طاعة مطلقة ولا يقبل أي عذر أو تأويل مع وجود رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) إن أثر العصيان داخل فئة تحمل رسالة إذا حصل الخلل في جانبهم قد يعرضون الرسول ويعرضون الرسالة كلها للخطر.

ولكنهم يردون: قد انتهت المعركة والمسلمون في أرض المعركة ينظرون إليهم ساكتين وكأن نشوة النصر قد أسكرتهم فتحرك خالد بن الوليد وبقية الخيالة على عبد الله بن جبير ومن تبقى معه فاستشهد عبد الله بن جبير ومن بقي معه على جبل الرماة.

آثار التفريط في طاعة القائد

جالت خيل المشركين وباغتتهم من الخلف فتفككت صفوفهم وتوقف هجومهم فأعاد المشركون توازنهم وانطلقت امرأة لترفع راية المشركين التي كانت على الأرض وانقلبت موازين المعركة فالمسلمون قد اختلطت خيل المشركين بينهم وبينما الحمزة (رضي الله عنه) في

توثبه وشجاعته وإخلاصه يحصد أرواح المشركين أمامه كانت هند أم معاوية ومعها وحشي الحبشي رامي الرمح الغادر الذي سدده وهو على بُعْد أمتارٍ من الخلف إلى سيد الشهداء كما سماه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فتصعد روحه في جسده الجديد إلى جوار ربها تاركاً جسده الطاهر ليشهد وحشية آل أبي سفيان وهمجيتهم فتبقر هند بطنه وتخرج كبده لتلوكها بأسنانها وتقطع أذنيه وأنفه لتخيطها أسورة في يدها، وفي ذلك الوضع يسقط العشرات من الشهداء.

وها هو آخر الأنبياء والمرسلين في ثبات منقطع النظير تهاجمه الجموع المشركة من كل جانب وهو يرميهم بالسهام حتى فرغت جعبته ويقارعهم بسيفه ومعه أربعة عشر رجلاً من أهل بيته ثبتوا معه ومن المخلصين، أما الباقون فقد فروا وتركوا رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فمنهم من وصل إلى المدينة ومنهم من لا يزال قريباً.

ولكن القلة المؤمنة الثابتة مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) استبسلت فكلما هجمت عصابة من المشركين كشفها الكرار علي (عليه السلام) وقتل منها قائدها فتراجعت إلا أنهم يهجمون من كل الجهات فكان أبو دجانة يضرب بسيفه حتى انحنى.

وتقدم أبيَّ بن خلف مع عصابته على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) حتى اقترب أبيٌّ فقال: لا نجوتُ إن نجوتَ يا محمد فتناول رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) الحربة من الحارث بن الصمة وطعن أبيّ بن خلف في رقبه فسقط من ظهر فرسه يخور كالثور ومات منها.

لقد كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أقرب أصحابه إلى العدو ويقاتل قتالاً شديداً فرماه ابن قمأة أقماه الله بحجرٍ شجت وجنته

وكسرت سنه (صلوات الله عليه وعلى آله) ثم أهوى ابن قمأة بسيفه على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فلقيه مصعب بن عمير بجسده ليفدي رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وسقط شهيداً.

ويضرب الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أروع الأمثلة في الصمود والإستبسال والثبات ولا يزال ينظم أصحابه طوال فترات المعركة.

ويُسمع الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو يدعو أصحابه إلى إعادة صف الصفوف فبدأوا بالتراجع واحداً واحداً حتى اصطفوا من جديد وفجأةً بدت للمشركين فكرة الرجوع إلى معسكرهم وإنهاء المعركة خوفاً أن يستعيد المسلمون زمام السيطرة فيخسرون هذا النصر الكبير فتركوا ساحة القتال وأنوفهم في السماء فخراً وفرحاً فقد ثأروا لقتلاهم في بدر.

التدخل الإلهي يمنع المشركين من مواصلة التقدم:

التدخل الإلهي يمنع المشركين من مواصلة التقدم حيث لقد كان من البديهي أن يتحرك المشركون إلى المدينة لكن الله صرفهم عنها بعد أن عفى عن المؤمنين فتمثل ذلك العفو في صرفه للمشركين عن المدينة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ‹آل عمران:١٥٢› وتوجه المشركون إلى معسكرهم وركبوا الإبل وتركوا الخيل راضين بهذه النتيجة للمعركة.

فلما انتهت المعركة سأل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) عن الشهداء فإذا بعمه حمزة (رضي الله عنه) في الشهداء وقد مثلوا به فحزن حزناً شديداً فقدم الشهداء للصلاة عليهم ويرفعون مجموعة مجموعة وحمزة لا يرفع حتى صلى على جميع الشهداء ثم دفنوا في أحد.

وانصرف المسلمون مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) إلى المدينة مثخنين بالجراح وأرسل علياً (عليه السلام) في آثار المشركين وتستقبل فاطمة (عليها السلام) أباها (صلوات الله عليه وعلى آله) وتعالج جراحه وتغسل الدم وهي تبكي فهي تعلم حرص رسول الله على إنقاذ الناس من عذاب الله وهم يفعلون به كل هذا.

أهم الدروس والعبر

لنستمع إلى السيد حسين رضوان الله عليه وهو يتحدث مع بعض الحجاج ومن على جبل أحد عن أهم الدروس والعبر من هذه المعركة فيقول:

ـ أولاً: السمع والطاعة للقائد:

كان من أهم الأشياء التي ربُّيَ عليها المسلمون في القرآن الكريم، وعلى يد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في تربيته للمسلمين هي: السمع والطاعة، الطاعة بمعنى الكلمة، والقرآن أكد على هذه، طاعة رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في كل الميادين.

ثانياً: عدم التنازع بين المجاهدين لأنه يؤدي إلى الفشل

في بداية المعركة - كما قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم-: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا

﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾‹آل عمران: من الآية١٥٢› في البداية كما قال: **﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾** أي قتل بسهولة، يمسحون رؤوس الكافرين، حصل التنازع، حصل الفشل، حصل عصيان، وهذه هي التي تضرب المسلمين، تضرب المسلمين ضربة رهيبة، التنازع والفشل، لا مبرر لأي شخص أن يدلي برأي، أو أن يقول شيئاً مع وجود رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؛ أولاً: كان النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) رسول من عند الله، أيضاً كان شخصاً كاملاً في ذكائه، في فهمه، شخص يعرف المجتمع العربي، ويعرف آلة الحرب عند العرب، ويعرف كل الأشياء في المجتمع العربي، ويعرف أيضاً تكتيكات المعارك، والقتال، لكن أحياناً تظهر الآراء: تنازع، وفشل، ومتى ما حصل تنازع وفشل داخل فئة تحمل رسالة، تحمل مهمة كبيرة جداً. هم كانوا أنصار رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، إذا ما حصل الخلل في جانبهم قد يُعرِّضون الرسول، ويعرضون الرسالة كلها، ثم يعرضون البشرية كلها للخسران، عندما حصل التنازع يقال بأنه حصل ممن كانوا رماة في الجبل، بعد أن رأوا المسلمين في المعركة الغلبة لهم، ورأوا المشركين انهزموا قالوا: ننزل، انتهت المعركة، ننزل غنائم، نجمع غنائم، وانتهت المعركة!

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان قد أكد عليهم بأن لا يبرحوا أماكنهم أبداً، كأنه حصل فيما بينهم، المجموعة الذين كانوا في [الثغرة] حصل فيما بينهم أخذ ورد، منهم من صمم على البقاء، ومنهم من نزل، الذين نزلوا بالطبع الآخرين يشاهدونهم، الآخرون من المقاتلين، هم يشاهدونهم، كان المفروض أن يقولوا: لا تبرحوا أماكنكم كما أمركم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، لكن عصوا،

والمعصية هذه لما سكت الآخرون كان كأنه موقف للكلّ، وتنازُع وفشل حصل من داخل، ماذا حصل فيما بعد؟

حصل فيما أعتقد أنا - والله أعلم - أن الله هيأ؛ لأنهم ارتكبوا خطيئة كبيرة، بغض النظر عن كونها خطيئة، ومن ورائها جهنم أو ما من ورائها جهنم، خطيئة في واقع العمل الرسالي، واقع الرسالة، هؤلاء هم يحملون رسالة للبشرية كلها، إذا لم يكونوا هم ملتزمين بالطاعة المطلقة للرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) فمعنى هذا بداية الفشل في أول الطريق، وهذا تعريض للرسالة، وللرسول وللأمة كلها للخطورة.

ثالثاً: أن يفهم الناس بأن من عواقب التفريط أن تخسر الأمة عظماءها:

ما الذي حصل بعد؟ يتهيأ أن يلف المشركون فيضربونهم، فيقتل سبعون قتيلاً، منهم: حمزة، وحمزة كما قال عنه الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله): سيد الشهداء، هو الذي سماه سيد الشهداء، حمزة كان معروفاً بالفروسية، والبطولة، ومعروف أيضاً بالإخلاص لرسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، والتفاني، التفاني في القتال. كانت خسارة حمزة تعتبر خسارة رهيبة؛ لأنه - حقيقة - أعظم خسارة على الأمة هي عظماؤها، أيُّ أمة تخسر أيَّ خسارة أخرى يمكن أن تعوَّض، كوارث طبيعية تتعرض للمساكن، أو للمزارع، أو لأي شيء آخر، لكن العظماء هم إذا ما فقدوا خسارة لا تعوض، فكان حمزة يعتبر خسارة كبيرة جداً.

من أين جاءت هذه الخسارة؟ هل الخسارة على النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وحده أم خسارة على الكل؟ كانت خسارة على الكل؛ لأن أولئك الذين تثاقلوا - كما قال الله عنهم - تنازعوا، وفشلوا، وعصوا،

استحقوا أن يؤدبوا، استحقوا أن يؤدبوا فعلاً، والأدب يأتي عامّ؛ لأن الآخرين سكتوا، ألم ينزل هؤلاء من الجبل والآخرون يشاهدونهم؟ لم يتكلموا، عندما يسكت الناس فالسكوت أحياناً يعبر عن الموقف الجماعي، فيكون الكل مستحقون للعقوبة.

والقرآن الكريم أكد على أن العقوبات تحصل في الدنيا، وأي عمل يعمله الناس العقوبة هنا تكون مفاجئة، عندما مال المشركون مالوا وفاجأوا المسلمين، وهم يجمعون الغنائم، كانت هزيمة منكرة للمسلمين حقيقة، كانت هزيمة منكرة، وبقي رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) مع مجموعة من أهل بيته، ومن خواص أصحابه، بقيوا يدافعون عنه، والمشركون شمتوا بالنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) حتى قال قائلهم: [أُعل هبل]، قالوا: إن أبا سفيان قال: [أعل هبل].

فكانت ضربة شديدة، الله قال عنها وهو يذكر القصة هذه - لأن غزوة أحد لم يكن فيها نصر للمسلمين حقيقة، النتيجة النهائية لم يكن فيها نصر، لكن كان فيها دروس كثيرة مهمة ما تزال مسطرة إلى الآن، وما يزال المسلمون بحاجة إليها إلى الآن.

قال الله سبحانه عن ما حصل: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ (آل عمران: من الآية ١٥٢) مما يدل على أنهم تلقوا عقوبة إلهية؛ لأن الله سبحانه وتعالى، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الفتح: من الآية ٤) متى ما عصاه من هو يتحمل مسؤولية، ويحمل رسالة، المسلمون جميعاً في أيام رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في هذا المكان هم كانوا طليعة من يصلح البشرية كلها، عندما عصوا استحقوا العقوبة، ولكن كما قال الله

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ العفو يفسره بعض المفسرين بأن معناه: [العفو عن الذنوب، العفو عن الإثم]. الموضوع ليس موضوع إثم والاّ ما إثم، الموضوع موضوع عقوبات وقتيّة هنا في الدنيا، الإثم هناك في الآخرة.

ولقد عفا عنكم، المدينة تبعد عن أحد، كم؟ أربعة كيلو متر، كان الشيء الطبيعي المحتمل لقريش هو: أن يدخلوا المدينة، أليس هذا كان هو المحتمل، وقد خرج الأنصار هنا، والمسلمون هناك، وقد هزموا، وبعضهم ضاعوا لفترة. كان الشيء المحتمل هو: أن يدخلوا المدينة، فيحتلوها، ويعبثوا بها، ولكن الله عفا عن المسلمين، وتدارك الأمر فصرفهم، فانصرف المشركون، واتجهوا نحو مكة.

هذا من اللطف الإلهي، من العفو الإلهي العظيم في هذا الموقف، وإلا كانت المدينة هنا قريبة جداً، وأي قائد عسكري يحصل له نصر كهذا، مثلما حصل لخالد بن الوليد ولقريش في تلك المعركة أن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو: أن يهجم على المدينة، ليسوا أغبياء إلى الدرجة هذه أن لا يفكروا أن يدخلوا المدينة، لكن الله صرفهم، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ كما قال الله...

ويقول:

فعندما نقرأ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ في قصة أحد قالوا: [أي: عفا عنكم الإثم]، عفا لم تترك المسالة تنتهي إلى أقصى حدودها، لأنه كان - كما قلنا أكثر من مرة - أنه كان من المحتمل عسكرياً احتمالاً مؤكداً هو: أن يدخل المشركون المدينة، لكن الله عفا فصرفهم.

فالمهم في هذا الموقف أن فيها دروس، وفيها خسارة كبيرة هي خسارة حمزة، ورسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) تألم جداً على حمزة؛ لأنه كان في ظرف أحوج ما يكون إلى شخص كحمزة، رجل

شجاع، ورجل مخلص، ورجل مؤمن، ورجل قوي في ذات الله، وأي قائد يدخل في مواجهة مع آخرين يعرف قيمة الرجل المهم. في ميادين المواجهة مع أعداء الله يصبح الرجل المهم له قيمته العالية، ويعرف الناس الحاجة الماسة إليه..

رابعاً: خطورة التصنيفات والتأويلات أمام أي توجيهات تأتي من القائد:

يقول السيد حسين رضوان الله عليه:

عندما نعود ونقرأ القرآن في قصة [أحد] نأخذ منها عبراً؛ لأن الله خلدها، وعندما خلد هذه القصة؛ لأن الأمة بحاجة إليها في كل مراحل حياتها، والقرآن ليس كتاباً تاريخياً، أو كتاب قصص، يخلد القضية؛ لأنها مُهمة، وموطن العبرة فيها هي المخالفة، والمخالفة التي قد نقول: أولئك لا يأثمون، إذا جئنا على قواعدنا، أنهم يأثمون أو لا يأثمون، متأولين، ألم يقولوا هكذا: التأويل ينهي الإثم ونحوه؟ لم ينطلقوا بجرأة، لكنهم عصوا، أنت عصيت أمراً، الأمر هذا لا تنطلق تتأول في مواجهته أبداً، وهذا هو ما دار حوله القرآن الكريم: التأكيد على أن لا يفسح المجال أبداً للتأويلات، والتصنيفات، والتقديرات، وربما.. ولعل كذا، والغاية واحدة، وعبارات من هذه.. التزم، التزم، وهكذا كانت روحية الإمام علي (عليه السلام) روحية الالتزام المطلق لرسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

ولأن من يلتزمون هذا الالتزام هم من يحصلون على الكمال المكتوب لمن دانوا بهذا الدين العظيم؛ لأن الإسلام دين تكامل، دين تكامل للبشر، فمن التزم به، من سلَّم روحيته له، وأطاع الله، وأطاع رسوله الطاعة المطلقة، يحصل على العلم، يحصل على الكمال المقدر

له، لكن من ينطلقون وراء التصنيفات والتأويلات هم من يجنون على الأمة، ما ضربنا من ذلك اليوم إلى الآن إلا من التأويلات هذه.

خامساً: ظهر في أحد عظمة الرسول كقائد عسكري:

يقول السيد حسين رضوان الله عليه في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

لقد كان (صلوات الله عليه وعلى آله) قائداً لديه معرفة عالية ويعتمد عليه بشكل كبير في ميدان المواجهة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾‹آل عمران: من الآية١٢١› كذلك بالنسبة لنفسيته أخلاقه العالية سعة صدره التي تجعله يعرف كيف يتعامل مع الآخرين في الظروف الصعبة في الظروف التي عادة تؤدي إلى اختلاف بين الناس، اختلاف بين المجتمع اختلاف فيما بين القيادة والجنود ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾‹آل عمران:١٥٩› عندما نسمع توجيهات كهذه فيها ما هو حكاية عما هو عليه فعلاً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ‹آل عمران: من الآية ١٥٩› أو نسمع توجيهات له وتراها ذات قيمة عالية وهامة جداً، خاصة في وضعية كهذه التي مر بها المسلمون بعد معركة أحد ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾‹آل عمران:١٥٩› وتجد داخل الآيات التي تذكر أحداث معركة أحد وتلك الهزيمة، كم ظهر فيها من كلمات ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾‹آل عمران: من الآية١٥٥› ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾‹آل عمران: من الآية١٥٢› وهكذا فيوجه رسوله (صلوات الله عليه وعلى آله) أيضاً بأن يعفو عنهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾‹آل

عمران: من الآية ١٥٩› العفو قد يكون التغاضي عن المؤاخذة التغاضي عن كثير من التأنيب والتوبيخ، العفو يختلف عن المغفرة ويكون له مجال خاص غير موضوع المغفرة، ولهذا يأتي في بعض الآيات يجمع بين العفو والمغفرة.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ‹آل عمران: من الآية ١٥٩› واستغفر لهم بأن تطلب من الله المغفرة لهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ‹آل عمران: من الآية ١٥٩› لأنه في حالة كهذه عندما يتجه لأن يشاورهم هذه فيها نوع من الأنس، أعني يلمسون بأنه ما تزال نظرته إليهم جيدة وما يزال قريباً منهم، الإنسان الذي تتجه لمشاورته يعني ماذا؟ أن نفسك قريبة منه؛ لأنه - عادة - الهزيمة تترك أثراً كبيراً في النفوس خاصة، وهم عندما انهزموا في أحد تركوا رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في الميدان وكانت قضية كبيرة هذه، فكان هذا شيئاً طبيعياً أن يستحي كل شخص منهم ويخجل ويكون يحاول أن لا يراه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فإذا ما اتجه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) إليهم وشاورهم وتحدث معهم يحسون بنوع من الأنس، فهذه لها أثر كبير في النفوس.

وعندما ينطلق رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يتعامل على هذا النحو من منطلق معرفته للناس كبشر يعرف الناس كناس ويعرف الوضعية أنه ليس صحيحاً أو ليس أسلوباً صحيحاً أن يتجه إلى توبيخ ومقاطعة لهم ونفور منهم هذا سيزيد من ماذا؟ من ارتياح العدو؛ لأنه أوجد هزيمة جعلت هذا المجتمع يتفكك تماماً وكل إنسان هو وإن زل قد يكون قريباً إلا نوعيه منهم تحدث عنهم: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ‹آل عمران: من الآية١٥٤› هذه نوعية ثانية لكن آخرين قد تكون أحياناً متى ما زلّ زلة كل واحد يعرف

زلته، وكل واحد يكون لزلته أثر في نفسه وبالإمكان إذا ما تزال نفسيته صالحة يكون قابلاً لأن يوجه أكثر ويتفهم أكثر ويأخذ دروساً وعبراً مما حدث فيكون فيما بعد على مستوى أفضل.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ﴾‹آل عمران: من الآية١٥٩› أي يقول هنا في توجيهات ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ﴾‹آل عمران: من الآية١٥٩› توجيهات هامة جداً وبالتأكيد أن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان على مستوى العمل بهذه التوجيهات.

سادساً: من أهم الدروس في أحد غربلت النفوس

يقول السيد حسين رضوان الله عليه في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

لاحظ هنا في معركة [أحد] كم حصل من خلالها من غربلة، غربلة كما قال بعد: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾‹آل عمران: من الآية١٦٦-١٦٧› وسابقاً يقول: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾‹آل عمران:١٤١› ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾‹آل عمران: من الآية١٤٠› ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾‹آل عمران: من الآية١٤٢›.

وهكذا؛ لأن الأحداث مهمة جداً في غربلة النفوس، أعني مهمة حتى بالنسبة لك أنت شخصياً بالنسبة لأي واحد منا من خلال الأحداث قد يتلمس هو ما لديه من نقاط ضعف ما لديه من رؤى قد تكون غير صحيحة، فيصلح نفسيته هو ويحاول أن يصحح وضعيته. إضافة إلى تقييم الناس لبعضهم بعض تقييم المجتمع وغربلته من

خلال الأحداث لأن مستقبل الأمة، أي أمة تستفيد من الأحداث على هذا النحو تكون خططاً قائمة على معرفة خططاً واعية قائمة على معرفة تعرف أن هذا الإنسان كذا وهذا كذا وهذا كذا وتلك القبيلة كذا وسكان تلك القرية كذا وهكذا تستطيع أن تعرف فتكون خططك بالشكل الذي لا يكون فيها أخطاء متكررة، قد توكل مهمة إلى شخص أو إلى مجموعة من الناس هم في الواقع غير جديرين بأن يقوموا بتلك المهمة وهكذا.

❊ ❊ ❊

غزوة الخندق (الأحزاب)

(في شوال سنة خمس هجرية - ٦٢٧م)

حصل تآمر يهودي ما بين اليهود وما بين الزعماء العرب في ذلك العصر المتنفذون والمتسلطون تحالف وتكاتف يهدف إلى القضاء على الإسلام عسكريا وكان من ثمرات هذا التحالف ومن نتائجه غزوة الأحزاب.

غزوة الأحزاب حشد فيها المتنفذون المجرمون من العرب وبدعم اليهود بتعاون عربي يهودي حشدوا فيها حشوداً كبيرة من الجنود لهدف حصار النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) ومن معه من المؤمنين في المدينة المنورة والعمل على القضاء عليهم نهائيا وتصفيتهم عسكرياً.

ولذلك سُميت هذه الغزوة بغزوة الأحزاب لأن قوى الشرك من العرب مع أحفاد القردة والخنازير اليهود الملعونين في محكم التنزيل تحزبوا مع المشركين وتكالبوا للقضاء على الإسلام واستئصال المسلمين حقداً منهم على هذا الدين القويم واستكباراً في الأرض وعلواً كما أخبر بذلك رب العالمين حيث قال عنهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ ‹المائدة:٨٢› .

فلم يهدأ لليهود لهم بال ولم يستقر لهم قرار منذ بزوغ فجر الإسلام وخصوصاً بعد أن دخل الإسلام إلى يثرب فظلوا يحيكون المؤامرات ويثيرون الحروب ضد المسلمين.

ففي السنة الخامسة من الهجرة ذهب مجموعة من اليهود منهم حيي بن أخطب وسلام بن مشكم إلى قريش لتحريضهم على قتال الرسول محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) فاستقبلهم زعماء قريش بالحفاوة والترحاب ومنهم أبو سفيان بن حرب.

أبو سفيان: مرحباً بهم وقائلاً لهم: أهلاً أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد.

أبو سفيان مع بعض الزعماء: يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول أخبرونا أديننا خير أم دين محمد.

يهود: بل دينكم يا معشر قريش خير من دين محمد.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾ ‹النساء: ٥١›.

يهود: إنا ندعوكم يا معشر قريش لقتال محمد واستئصال شأفته ونحن سَنَدٌ لكم وعون على حربه وسوف نقوم بتحريض من استطعنا تحريضه من قبائل العرب.

زعماء قريش: نحن أول من يجيب إلى ذلك إذا كنتم صادقين.

يهود: صادقون في ما نقول وسترون ذلك بأم أعينكم.

يهود: ينطلقون إلى قبيلة غطفان ويلتقون بزعمائها.

حيي بن أخطب: يا معشر العرب إن محمداً قد قويت شوكته واستفحل أمره وإنا ندعوكم إلى حربه والقضاء على دينه وقد أجمعت قريش على حربه معنا وهذه بعض الأموال تعينكم على الحرب.

زعماء غطفان: ما دام الأمر كذلك فإنا مستعدون.

ثم يذهب اليهود إلى قبيلة سُليم وغيرها من القبائل فينجحون في تحريضهم، وتعاهدوا جميعاً على حرب محمد وحددوا موعداً للخروج ثم بدأوا يتهيئون للخروج.

ركب من خزاعة: ينطلقون إلى المدينة ويصلون في أربع ليالٍ.

يا رسول الله: إن قريشاً وقبيلة غطفان وبعض القبائل العربية معهم اليهود قد تحالفوا وتعاهدوا على حصاركم وحربكم.

الرسول يجمع المسلمين ويخبرهم خبر الأحزاب الذين تحزبوا على حرب الإسلام، ويندب الناس إلى حربهم والاستعداد لمواجهتهم ويوصيهم دائماً بالصدق مع الله والثبات على دين الله، وأن المسلم الواعي لا يتزعزع دينه مهما كانت الظروف والأحداث، ويستشيرهم.

بعض الصحابة: يدلون بآرائهم.

سلمان الفارسي من الرجال الأوفياء الذين صدقوا الله ورسوله: يا رسول الله عندي لك رأي.

بعض من حضر: ما هو هذا الرأي يا سلمان.

سلمان: نحفر على المدينة خندقاً يحيط بها فلا يستطيعون عبوره فإنا كنا في بلاد فارس إذا حوصرنا خندقنا.

بعض من حضر: نعم الرأي ما رأيته يا سلمان ويختاره رسول الله وأعجب المسلمون بهذا الرأي.

ثم أخذ الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وسلمان يخططان للخندق وكيف يكون مساره وعمله، فتم التخطيط له ودراسة الموضوع، وبدأت مرحلة التنفيذ فأمر الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) بحفر الخندق وجعل لكل عشرة رجال ٤٠ ذراعاً يحفرونه، ووكل بكل جهة قوماً، وأخذ المسلمون يحفرون بجد ونشاط ويرددون الأشعار المحفزة على العمل، وكان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يعمل بنفسه حتى اغبر بطنه، فتم حفره في مدة وجيزة لم يصل العدو إلا وقد تم العمل، وكان سلمان الفارسي ممن يعمل بجد ونشاط فكان يعمل عمل عشرة رجال فأخذ الصحابة من المهاجرين يقولون سلمان منا،

والأنصار يقولون بل منا، فقال (صلوات الله عليه وعلى آله): «سلمان منا أهل البيت».

ووصلت جموع الأحزاب وجحافل الشرك والضلال إلى المدينة في جيش عظيم قوامه عشرة آلاف مقاتل بكل عتاده وعدته على رأسهم أبو سفيان بن حرب رئيساً على الجميع، فتفاجئوا بوجود خندق حول المدينة لا يستطيع أحدٌ تجاوزه كأنه حصن.

فقالوا: هذه مكيدة لم تكن العرب تعملها.

فقال قائلهم: إن عندهم رجلاً من بلاد فارس وهو الذي أشار بذلك فغضبوا غضباً شديداً، فحطوا رحالهم حول المدينة محاصرين لها.

فنزلت قريش ومن تبعهم في مجمع الأسيال ونزلت غطفان ومن تبعهم من نجد إلى جانب جبل أحد.

بينما كان الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) قد كان خرج في ثلاثة آلاف وعسكر بهم عند سفح جبل سلع شمال المدينة، فجعل الجبل خلف ظهره والخندق بينه وبين القوم، وجعل مجموعات يتناوبون للحراسة ليلاً حتى يمنعوا تسلل العدو، وكان يسكن المدينة ثلاثة بطون من اليهود: (بني قينقاع وبني النضير وبني قريضة) أما بطنان فقد نقضوا العهد مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وأجلاهم منها، وبقي منهم بطن هم بني قريضة فدس إليهم أبو سفيان حيي بن أخطب اليهودي ليحملهم على نقض العهد والانضمام إلى جموع الأحزاب ولضرب المسلمين من الداخل.

فتسلل حيي بن أخطب إلى أن وصل بني قريضة فرءاه زعيم بني قريضة كعب بن أسد وصاحب العهد مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فدخل الحصن مسرعاً وأغلق الباب دونه.

حيي: إفتح الباب يا كعب.

كعب: لم يجبه.

حيي: يا كعب ويحك إفتح لي.

كعب: إنك امرؤ مشؤوم قد عاهدتُ محمداً ولست بناقضٍ ما بيني وبينه ولم أر منه إلا الصدق والوفاء.

حيي: إفتح لي أكلمك.

كعب: ما أنا بفاعل.

حيي: ما أغلقت باب الحصن إلا خوفاً على طعامك فَلَستُ بآكلٍ منه. ففتح له باب الحصن ودخل حيي إلى كعب.

حيي: جئتُك يا كعب بعز الدهر جئتك ببحر طام بقريش على قادتها وسادتها وغطفان على قادتها وسادتها عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

كعب: جِئْتَني والله بذل الدهر فدعني وشأني فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

حيي: لم يزل به حتى نقض العهد على أن يعطيه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه حيي في الحصن حتى يصيبه ما أصاب بني قريضة.

هكذا دائماً اليهود لا يفون بعهد أو ميثاق، ما شيمتهم إلا الغدر كما قال الله عنهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:١٠٠).

كعب بن أسد زعيم بني قريضة يقوم بتمزيق الكتاب الذي فيه العهد.

حيي بن أخطب (إبليس اليهود) يرجع إلى أبي سفيان وقد نجح في حمل بني قريضة على نقض العهد.

تصل الأخبار إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) عن نقض بني قريضة العهد فيبعث نفراً لمعرفة الخبر.

النفر يذهبون إلى بني قريضة فيجدونهم على أخبث حال ثم يعودون إلى رسول الله.

النفر: يا رسول الله إن اليهود قد نقضوا العهد.

رسول الله: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين».

لما حاصر الأحزاب المدينة بجيشهم الكبير ونقض اليهود العهد من داخل المدينة عظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف ووضعوا النساء والأطفال في الحصون خوفاً عليهم من اليهود وقد شخص الله سبحانه هذه الحالة بقوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ ‹الأحزاب:١١› وظن بعض المؤمنين الظنون كما ذكر القرآن وقص الله علينا حالتهم في سورة الأحزاب قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ‹الأحزاب:١٠›.

وتهيأت أجواءٌ خصبة للمنافقين فظهر النفاق حتى قال قائلهم: كان محمد يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

فهذه الغزوة غربلت المسلمين وكشفت المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين يتبخر إيمانهم ويتلاشى في وقت وجيز ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ ‹الأحزاب:١٤›.

وصدر فيها المؤمنون الواعون أعظم الدروس في الشجاعة والتضحية والثبات في أفعالهم ومواقفهم وأقوالهم فكانوا حقاً مثلاً يحتذى بهم وقال الله عن هذه النوعية العالية: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

كان الأحزاب يحكمون حصارهم على المدينة فلا يدخل إليها طعامٌ مدة الحصار إلا ما كان سراً فأصاب المسلمون جوعاً بسبب الحصار لكن الله جعل البركة في ما كان موجوداً.

وعانى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وسلم) والمؤمنون الصادقون معاناة شديدة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض؛ لأنهم وجدوا لهم تربة خصبة لبث سمومهم ومؤامراتهم، وكذلك عانى الرسول من أصحاب الوعي الضعيف والناقص والذين يختلقون الأعذار ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ «الأحزاب:١٣»، ومن الذين قال الله عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ «الحج:١١».

وفي أيام الحصار كان المعسكران يتراشقان بالنبل والحجارة، فكان لدى المسلمين من النبل ما يكفيهم لعام إلا أن المشركين كانوا لا يعولون على سلاح النبل كثيراً فكان همهم الأكبر الذي يتلهفون له هو عبور الخندق واقتحام المدينة واستئصال شأفة المسلمين، فكانوا يتحينون الفرصة طوال الليل والنهار، لكن الله من بيده مقاليد السموات والأرض خيب أملهم.

وفي يوم من أيام الخندق رمى أحد المشركين بنبل فأصاب سعد بن معاذ في أكحله فأخذ الدم ينزف منه.

فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسول الله وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني إلا وقد أقررت عيني من بني قريضة فاستجاب الله دعوته فتوقف نزيف الدم إلى أن أقر الله عينه في بني قريضة واستشهد رضوان الله تعالى عليه.

بينما الوضع على تلك الحال من حصار وتراشق بالنبل إذا بنفر من أشجع فرسان قريش تجول حول الخندق منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل ونوفل بن المغيرة وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب حتى وجدوا ثغرة في الخندق فأقحموا خيلهم منها وتقدموا نحو معسكر المسلمين متحدين مستصغرين للمسلمين.

فطلب عمرو المبارزة ثلاث مرات فلم يجبه من المسلمين أحد سوى علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي كان يقول للنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) -في كل مرة-: أنا أبارزه يا رسول الله! وَلَمَّا سمع النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) عَمْرًا يقول:

وَلَقَدْ بَحَحْتُ مِنَ النِّدَاءِ ... لِجمْعِهِمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ
فَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَجْ ... جَعُ مَوْقِفَ القِرْنِ الْمُنَاجِزْ
إِنِّيْ كَذَلِكَ لَمْ أَزَلْ ... مُتَسَرِّعًا نَحْوَ الْهَزَاهِزْ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الْفَتَى ... وَالْجُودَ مِنْ خَيْرِ الْغَرَائِزْ

وأردف قائلاً: أتزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار؛ فما

لكم لا تخرجون إليّ؟! فأذنَ (صلوات الله عليه وعلى آله) لعليٍّ (عليه السلام)، وعَمَّمَهُ بعمامته، وقَلَّدَهُ سيفه، وقال: اللهم إن هذا أخي وابنُ عمي؛ فلا تَذَرْني فَرْدًا وأنت خير الوارثين، فخرج علي يرتجز:

لاَ تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أتَا ... كَ مُجيبُ صَوْتك غَيْرَ عَاجِزْ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيْرَةٍ ... يَرْجُو بِذَاكَ نَجَاةَ فَائِزْ
إني لأَرْجُو أَنْ أُقِيـ ... ـمَ عَلَيْكَ نَائِحَةَ الْجَنَائِزْ
مِنْ طَعْنَةٍ نَجْلاَءَ يَبْـ ... ـقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

فقال عمرو: مَنْ أنت؟ فَانْتَسَبَ له؛ فقال: يا ابن أخي، كان أبوك نديمي وصديقي؛ فارجع فلا أحب أن أقتلك!

فقال علي: لكني أحب أن أقتلك!

فقال عمرو: إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع؛

فقال علي: إن قريشًا تُحَدِّثُ عنك أنك لا تُدْعَى إلى ثلاث إلا أجبتَ ولو إلى واحدة منها، قال: أجل.

فقال: أدعوك إلى الإسلام، قال: دَعْ عنك هذه، قال: أدعوك إلى أن ترجع بمن معك،

قال: إذن تتحدث نساء قريش أنَّ غلامًا خدعني!

قال: فإني أدعوك إلى البراز؛ فحمي عَمْرُو وقال: ما كنت أظن أن أحدًا من العرب يرومها، فَتَرَجَّلَ عن فرسه فَعَقَرَهُ، فتجاولا وحجبهما الغبار عن الناس

فتنازلا وتجاولا، هذا يهتف بسم الله الله أكبر، وهذا يهتف باللات والعزى، والمسلمون ينظرون ويترقبون في دهشة وقلق، والرسول يدعو في محراب العزة والشرف.

فثار الغبار من تحت أقدامهما من شدة المبارزة، فضرب عمرو بن عبد ود علياً ضربةً شديدة فتلقاها علي بالدرقة فقدها وأثبت سيفه فيها.

فضربه علي ضربة حيدرية كانت كالصاعقة على عاتقه سقط منها على الأرض.

ثم تقدم إليه علي ليجهز عليه فتفله عمرو فتراجع علي قليلاً حتى هدأ غضبه ليكون قتله لله خالصاً، فلما هدأ غضبه عاد إليه فقتله.

فارتفع هتاف الله أكبر من بين الغبرة فعرف الرسول والمسلمون أن علياً قد قتله فكبروا وفرحوا بنصر الله.

ولمَّا انجلت الغبرة فإذا بعدو الله قد خر صريعاً على الأرض أفنى عمره في نصرة اللات والعزى وهبل وختم عمره بالقتل والخزي في سبيل الجبت والطاغوت، فقد كان لدعاة الكفر صمام الأمان ورأس الحربة فقد كان في مقدمة الصفوف وقلب المعارك.

وكانت لعمرو درع من نسج داوود؛ فقال عمر بن الخطاب لعلي (عليه السلام): هلا سلبته درعه؟ فإنه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: استحييت أن أسلب ابن عمي، وأنشد:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ
فَصَدَدْتُ حِيْنَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلاً ... كَالْجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَرَوَابِي
وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوَ انَّنِي ... كُنْتُ الْمُقَطَّرَ بَزَّنِي أَثْوَابِي

فتنازلا وتجاولا، هذا يهتف بسم الله الله أكبر، وهذا يهتف باللات والعزى، والمسلمون ينظرون ويترقبون في دهشة وقلق، والرسول يدعو في محراب العزة والشرف.

فثار الغبار من تحت أقدامهما من شدة المبارزة، فضرب عمرو بن عبد ود علياً ضربةً شديدة فتلقاها علي بالدرقة فقدها وأثبت سيفه فيها.

فضربه علي ضربة حيدرية كانت كالصاعقة على عاتقه سقط منها على الأرض.

ثم تقدم إليه علي ليجهز عليه فتفله عمرو فتراجع علي قليلاً حتى هدأ غضبه ليكون قتله لله خالصاً، فلما هدأ غضبه عاد إليه فقتله.

فارتفع هتاف الله أكبر من بين الغبرة فعرف الرسول والمسلمون أن علياً قد قتله فكبروا وفرحوا بنصر الله.

ولمَّا انجلت الغبرة فإذا بعدو الله قد خر صريعاً على الأرض أفنى عمره في نصرة اللات والعزى وهبل وختم عمره بالقتل والخزي في سبيل الجبت والطاغوت، فقد كان لدعاة الكفر صمام الأمان ورأس الحربة فقد كان في مقدمة الصفوف وقلب المعارك.

وبمقتل عمرو انكسرت شوكة الأحزاب واهتز كيانهم وتصدع وسبب لهم الإرباك والفشل، ووصل إليهم مقتله فكان بمثابة الزلزال المدمر وحل عليهم شبح الخوف والرعب، وكانت هزيمتهم كما أخبر الله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ ‹الأحزاب: ٢٥›.

ثم أقبل علي إلى رسول الله ووجهه يتهلل بالفرح والسرور، فعانقه (صلوات الله عليه وعلى آله) وقال: «لمبارزة علي ابن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من عبادة أمتي إلى يوم القيامة».

قال جابر بن عبد الله: فما شبهت قتل علي عمرواً إلا بما قص الله

من قصـة داوود وجالوت حيـث يقول الله جـل شأنه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾‹البقرة:٢٥١›.

وبمقتـل عمرو ونوفل قـال (صلوات الله عليه وآلـه): «الآن نغزوهم ولا يغزونا».

وفـي ليـالٍ شاتيـة شديـدة البـرد بعـث الله الريـح علـى الأحـزاب في معسكراتهم لم تترك لهم ناراً تشتعل وأزالت خيامهم وتساقطت قدورهم كما ذكر الله ذلك في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾‹الأحزاب:٩›.

عنـد ذلك نادى أبو سفيان: يا قـوم لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنـو قريضـة ولقينـا مـن هـذه الريح ما تـرون فالرحيـل الرحيـل فإني مرتحل فارتحلوا، فارتحلوا يجرون أذيال الخيبة والهزيمة.

فسمعت غطفان بما فعلت قريش فشمروا راجعين إلى بلدانهم.

فلمـا كان الصبـح وقد تأكد الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) من رحيلهم رجع بالمسلمين إلى المدينة منتصرين مسرورين.

الشعب اليمني اليوم يعيش أجواء غزوة الأحزاب:

ومـا أشبه تحالف قوى العدوان اليـوم في حربهم وحصارهم للشعب اليمنـي حيـث تتظافـر جهـود طواغيـت ومنافقـي العـرب مـع اليهـود والنصـارى مـع أمريـكا وإسرائيـل للقضـاء علـى الإسـلام المحمـدي الأصيـل الذي سطع نوره مـن اليمن ونحن على يقين أن مصير تحالف قـوى الشـر سيكـون أسوأ من مصير مـن تحالفوا في يـوم الأحزاب على رسول الله والمسلمين معه.

من أهم الدروس والعبر

١) أن تظل ثقتنا بالله كبيرة مهما كان حجم التآمر وأن لا نسيء الظن بالله مهما حصل من متغيرات ميدانية المهم أن نأخذ بأسباب النصر.

يقول السيد حسين رضوان الله عليه في [معنى التسبيح]:

من يضعف إيمانهم دائماً يردون - كما نقول نحن - المَحْق، يردون المَحْق في الله، فيحمِّل الله مسؤولية ما حصل، ثم ينطلق ليسيء الظن في الله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾‹الأحزاب: من الآية١٠› فحصل عند البعض عندما حوصر المسلمون في المدينة مع الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) في غزوة الأحزاب: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ حتى انطلق بعضهم يسخرون من النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وهم يحفرون الخندق، عندما ضرب الصخرة فانقدحت فقال: (الله أكبر إني لأرى قصور فارس، إني لأرى قصور صنعاء) فقالوا: يعدنا بأن يصل ديننا، أو أن تفتح هذه المناطق على أيدينا، وها نحن لا يأمن الواحد منا أن يخرج ليبول. ألم يقولوا هكذا؟ انطلق بعض الناس يقول هكذا.

ويقول:

بعض الناس يسيء الظن بالله، وهذا حصل في يوم الأحزاب عند بعض المسلمين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾‹الأحزاب: من الآية١٠› عندما حاصرهم المشركون فحصل لديهم رعب كما حكى الله عنهم في [سورة الأحزاب]: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾‹الأحزاب:١١› كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب: من الآية١٠) بدأت الظنون السيئة.

٢) أن نعرف أن الشدائد أحياناً تعتبر مقدمات فتح:

عندما يدخل الناس في أعمال، ونكون قد قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: من الآية٤٠) فيمر الناس بشدائد إذا لم تكن أنت قد رسخت في قلبك عظمة الله سبحانه وتعالى، وتنزيه الله أنه لا يمكن أن يخلف وعده فابحث عن الخلل من جانبك: [أنه ربما نحن لم نوفر لدينا ما يجعلنا جديرين بأن يكون الله معنا، أو بأن ينصرنا و يؤيدنا] أو ابحث عن وجه الحكمة إن كان باستطاعتك أن تفهم، ربما أن تلك الشدائد تعتبر مقدمات فتح، تعتبر مفيدة جداً في آثارها.

وقد حصل مثل هذا في أيام الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) في الحديبية، عندما اتجه المسلمون وكانوا يظنون بأنهم سيدخلون مكة، ثم التقى بهم المشركون فقاطعوهم فاضطروا أن يتوقفوا في الحديبية، ثم دخل الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) في مصالحة معهم، وكانت تبدو في تلك المصالحة من بنودها شروط فيها قسوة، لكن حصل في تلك المصالحة هدنة، هدنة لعدة سنوات كأنها لعشر سنوات تقريباً.

لاحظ ماذا حصل؟ بعد ذلك الصلح الذي دُوِّن وفيه بنود تبدو قاسية، وظهر فيه المسلمون وكأن نفوسهم قد انكسرت، كانوا يظنون بأنهم يدخلون مكة، ثم رأوا أنفسهم لم يتمكنوا من ذلك فرجعوا، بعد هذه الهدنة توافدت الوفود على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) من مختلف المناطق في الجزيرة العربية واليمن وغيرها، وفود إلى المدينة ليسلموا، فكان ذلك يعتبر فتحاً، وكان فتحاً حقيقياً في ما هَيأ من ظروف مناسبة ساعدت على أن يزداد عدد المسلمين، وأن يتوافد

الناس من هنا وهناك إلى المدينة المنورة إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ليدخلوا في الإسلام، فما جاء عام الفتح في السنة الثامنة إلا ورسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) قد استطاع أن يجند نحو اثني عشر ألفاً، الذين دخلوا مكة.

إذا كان الإنسان ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بالله، ضعيف في إدراكه لتنزيه الله سبحانه وتعالى قد يهتز عند الشدائد، إما أن يسيء الظن في موقفه: [ربما موقفنا غير صحيح وإلا لكنا انتصرنا، لكنا نجحنا..] تحصل ربما، ربما..إلى آخره، أو يسيء الظن بالله تعالى وكأنه تخلى عنا، وكأنه ما علم أننا نعمل في سبيله، وأننا نبذل أنفسنا وأموالنا في سبيله: [لماذا لم ينصرنا؟. لماذا لم..؟].

٣) أن الإنسان المؤمن يزداد إيماناً مع الشدائد:

الإنسان المؤمن يزداد إيماناً مع الشدائد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣)؛ لأن الحياة كل أحداثها دروس، كل أحداثها آيات تزيدك إيماناً، كما تزداد إيماناً بآيات القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾(الأنفال: من الآية٢) كذلك المؤمن يزداد إيماناً من كل الأحداث في الحياة، يزداد بصيرة، كم هو الفارق بين من يسيؤون الظن عندما تحصل أحداث، وبين من يزدادون إيماناً؟. وهي في نفس الأحداث، أليس الفارق كبيراً جداً؟.

لماذا هذا ساء ظنه، وضعف إيمانه، وتزلزل وتردد وشك وارتاب؟ وهذا ازداد يقيناً وازداد بصيرة وازداد إيماناً؟! هذا علاقته بالله قوية،

تصديقه بالله سبحانه وتعالى، وثقته بالله قوية، تنزيهه لله تنزيه مترسخ في أعماق نفسه، يسيطر على كامل مشاعره فلا يمكن أن يسيء الظن بالله مهما كانت الأحوال، حتى ولو رأى نفسه في يوم من الأيام وقد جثم على صدره [شمر بن ذي الجوشن] ليحتز رأسه كالإمام الحسين (صلوات الله عليه).

❊ ❊ ❊

غزوة خيبر

(سنة ٧ هـ - ٦٢٨م)

كان يهود خيبر ممن نقضوا عهودهم مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وانضموا إلى التحالف الذي كان يستهدف استئصال المسلمين. وبعد هزيمة الأحزاب كانت يهود خيبر تخرج للتدريب بجيشها وكانوا عشرة آلاف مقاتل يخرجون صفوفاً ويرفعون حصونهم المتتابعة الممتدة على كل قراهم كما هو دأبهم وكما وصفهم الله في القرآن الكريم: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ ‹الحشر: ١٤› ويحفرون الخنادق ويجمعون غذاءً يكفيهم عاماً كاملاً ويجمعون السلاح بجميع أنواعه آنذاك فهم أهل أموال طائلة وكنوزٍ وفيرة.

وبينما هم في التدريب قال أحدهم: إن محمداً يغزو كل من حاربه مع الأحزاب فتكلم قائدهم: محمد يغزونا؟ هيهات هيهات!!!.

آخر: إن محمداً لم يقاتل إلا قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب أما نحن فلن يخرج إلينا فنحن أهل الحرب والقتال.

وكان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) قد سلك طريقاً مغايرة لطريق خيبر فأمن أهل خيبر وفي ليلة من الليالي كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ينزل بالجيش في ساحة خيبر ويفرض الحصار عليها بشكل سري وهادئ.

وبعد طلوع الشمس خرج اليهود من حصونهم إلى مزارعهم للعمل ولكنهم رأوا رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) قد غزاهم فجأة

فولوا هاربين إلى الحصون يصيحون: محمدٌ والخميس.. محمدٌ والخميس [أي الجيش].

فقال رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): «**الله أكبر.. خربت خيبر.. إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذَرين**».

وبعد أيام من الحصار والمناورات أرسل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أبا بكر مع مجموعة فلما وصلوا خرجت المجموعة المجهزة لذلك المكان من الحصن وبرز فارسهم فيبرز له فارس من المسلمين وتنازلا فضرب اليهودي بسيفه ضربة قوية فلقيها المسلم بترسه ولكن السيف نزل إلى الأسفل ووصل إلى رِجْل المسلم فقطعها فاستشهد رحمه الله واشتبكت المجموعتان فترة من النهار فكانت الغلبة لليهود فرجع أبو بكر بالمجموعة مهزوماً.

وفي اليوم الثاني أرسل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) عمر بن الخطاب بمجموعة فلما قربوا من الحصن أبطأ عمر في السير فقال له جندي من المجموعة: مالك يا أبا حفص لا تتقدم؟

عمر: أسرعوا يا إخوتي وتوكلوا على الله.

فلما اقتربوا خرجت مجموعة من الحصن واقتتلوا فترة من النهار فكان محمود بن مسلمة تحت الحصن فألقى عليه يهودي حجراً فاستشهد رحمه الله وكانت الغلبة لليهود فرجع عمر بالمجموعة مهزوماً فقال عمر للمجموعة: لو كان معي مجموعة غير جبناء لفتحت الحصن.

فأجابه أحدهم: إنك الذي جبنت يا أبا حفص وكأن سيفك عصا.

فتألم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أكثر لما جرى وجمع

الناس وقال لهم لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه.

فتمنى البعض أن يكون هو الذي سيعطيه رسول الله (صلوات الله عليه وآله) الراية وفي الصباح اجتمعوا عند رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فقال: «**أين علي**» فقالوا إنه أرمد. فقال رسول الله (صلوات الله عليه وآله): «**ائتوني بعلي**» فلما جاءه تفل ومسح عينيه فشفيتا وأعطاه الراية وقال: «**خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله على يديك**» فأخذ علي (عليه السلام) يهرول بالراية مسرعاً حتى ركزها تحت الحصن.

وظهر يهودي من الحصن: من أنت.

فأجابه: أنا علي بن أبي طالب.

فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى، وخرجت مجموعة من فرسان اليهود وبرز الحارث فتقدم علي (عليه السلام) لمنازلته وتعاركا فما هي إلا لحظات وإذا الحارث صريع مجندل على الأرض فحمله اليهود.

ويتقدم أخوه (مرحب) أقوى فرسان خيبر كلها وطلب المبارزة وارتجز شعراً فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فتقدم علي (عليه السلام) يرتجز شعراً فقال:

أنا الذي سمّتني أمي حيدرة أضرب بسيفي ميمنة وميسرة

أكيلكم بالسيف كيل السندرة

وتقدم علي (عليه السلام) وضرب بذي الفقار فوق رأس مرحب ضربة سمع اليهود الذين في الحصن تلك الضربة حين قطعت المغفر المنحوت من الحجر ووصل السيف بين أسنان مرحب وتوقف الجميع مندهشين لتلك الصورة فقد توقف سيف مرحب في الهواء وأنفلق رأسه نصفين وخر صريعاً فكبر علي (عليه السلام) وكبر بعده من كان قد وصل من المجموعة ويواصل المسلمون هجومهم بينما اليهود يهربون إلى داخل الحصن إلا أن علياً (عليه السلام) ومن معه استطاعوا اللحاق بهم قبل أن يغلقوا الباب فضرب يهودي بسيفه علياً (عليه السلام) فلقيه بالترس وسقط الترس فأخذ علي (عليه السلام) بمقبض الباب وتترس به وقتل ذلك اليهودي، بينما مجاميع من جيش المسلمين لا تزال في الطريق إلى ساحة المعركة وما إن وصلوا حتى اقتحموا مع علي (عليه السلام) الباب ودخلوا الحصن يقتلون ويأسرون فأخذ اليهود يهربون إلى الحصون الخلفية بعد أن سقطت حصون ناعم، فأرسل علي (عليه السلام) بلالاً (رضي الله عنه) بالأسرى والغنائم إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

فتقدمت المجموعة مع علي (عليه السلام) إلى الحصون الخلفية واليهود قد امتلأت قلوبهم رعباً من هول ما رأوا من تلك الضربات الحيدرية ولكن أحد فرسانهم تقدم للمبارزة فأهوى بسيفه على علي (عليه السلام) ولكن علياً (عليه السلام) أوقف حركة هذا المبارز فقد قطع ذو الفقار رأسه وتناوش المسلمون مع اليهود زمناً يسيراً كانت الغلبة للمسلمين لتسقط حصونهم ويهرب أكثر اليهود إلى آخر معاقلهم وحصونهم والخوف قد سبقهم إلى تلك الحصون المحاصرة فضربات علي (عليه السلام) قد شلَّت تفكيرهم القتالي وأصبحوا يطلبون الصلح

فقبل رسول الله (صلوات الله عليه السلام) أن يصالحهم على:

أن لا يقتلهم وأن يأخذ جميع أموالهم، أن يستأجرهم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) على مزارعهم بنصف ما أثمرت.

وانتشر نبأ سقوط خيبر في يد الرسول فأسرع اليهود الساكنون في فدك والعوالي وتيماء إلى طلب الصلح من رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ودفع الجزية إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وكان سقوط خيبر نهاية لليهود ودرساً لكل المشركين من قبائل العرب فأسلم بعض قبائل العرب وها هي مكة تتهيأ للسقوط في يد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

من أهم الدروس والعبر

درس مهم نستفيده من خيبر هو:

١) معرفة القيادة والأمة التي تستطيع هزيمة اليهود:

درس مهم تركه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) للأمة من بعده من غزوة خيبر حتى تكون على وعي كامل وبصيرة عالية بمن هو الجدير بقيادتها ومن هو الذي يستطيع أن يقودها إلى النصر والعزة ومن يمثل صمام الأمان لهذه الأمة وبالذات في مواجهة اليهود الذين هم العدو التاريخي والمستقبلي لهذه الأمة .

في خيبر كشف الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) كيف أن الأمة كما يقول السيد حسين - رضوان الله عليه - في الدرس الأول من دروس المائدة:

إن الأمة بحاجة إلى علي حتى وإن كان في مقام قد تعتقد أنه لا ينفع فيه.. فنحن نحن بحاجة أن نتولى عليًا (عليه السلام). وإن كنا نعتقد أن عليًا لن يخرج بسيفه فيقاتل.

عندما كان أرمد لا يبصر موضع قدميه، ألم يكونوا يرون بأنهم لا يحتاجون إلى علي؟ فعندما قال رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): «**لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**» نفس الآية التي قالت: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ (المائدة: ٥٤) نفس المنطق يضعه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) على علي: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه**».

أنه لن يقف أمام اليهود ويهزمهم إلا رجلاً من أهل بيت رسول الله يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قيادة في هذا المستوى، قيادة يحبها الله ورسوله، وتحب الله ورسوله، وأمة تحب الله ورسوله ويحبها الله ورسوله.

* * *

فتح مكة

(في شهر رمضان سنة ثمان هـ، يناير ٦٣٠م)

كانت خزاعة في حِلْف النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) وأمانه كما سبق في صلح الحديبية، وبنو بكر مع قريش، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات؛ فدبَّر بنو بكر غلامًا رفع صوته متغنيًا بهجاء النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) -صانه الله- فشجَّهُ رجل من خزاعة؛ فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يُعينُوهُمْ بالرجال والسلاح فأمدوهم فأغاروا على خزاعة ليلًا وهم آمنون على ماء يسمى الوتير بأسفل مكة! وقتلوا منهم عشرين أو يزيدون! وقاتل معهم جَمْعٌ من قريش مثل: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم حتى ألجؤوهم إلى الحرم! وبادر سيد خزاعة عمرو بن سالم في أربعين راكبًا إلى المدينة، والنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في المسجد بين الناس فأنشده:

يَـارَبِّ إنِّي نَاشِـدٌ مُحمَّـدَا ... حلْفَ أَبِينَا وَأَبِيْه الْأَتْلَـدَا[٣]
قَـدْ كُنْتُمُ وُلْـدًا وَكُنَّا وَالـدَا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَـمْ نَنْزِعْ يَـدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا[٤] ... وَادْعُ عبَادَ اللهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا
فيهِمْ رسُـولُ الله قَـدْ تَجَـرَّدَا ... إنْ سيمَ خَسْفًا وجهُهُ تَربَّدَا[٥]
في فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَأْتِـي مُزْبِـدَا ... إنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِـدَا
وَنَقَضُـوا ميثَاقَـكَ الْمُؤَكَّـدَا ... وَجعَلُوا لي في كَدَاءَ رُصَّدًا[٦]

(٣) نَاشِدٌ: طَالِبٌ وَمُذَكِّرٌ. الأَتْلَدُ: القديم.
(٤) أَعْتَدَ: من العتيد، وهو الحاضر.
(٥) سِيمَ الخَسْفُ: كُلِّفَ الذل. تربَّد: تغير إلى السواد.
(٦) كَدَاءَ: موضع بأعلى مكة. رُصَّدًا: جمع راصد، وهو المترقب.

وزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا ... وَهُمْ أذلُّ وأقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بالوَتِيرِ هُجَّدًا ... وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وسُجَّدَا

فقال رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم! وقام يجر رداءه وهو يقول: لا نُصِرْتُ إن لم أَنْصُرْ بَني كَعْب ممَّا أَنْصُرُ به نَفْسي! وعَرَضَ له عَنَانٌ في السماء، فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ﴾؛ وأمر الناس بالجهاز، وسأل الله أن يُعْمِيَ على قريش حتى يَبْغَتَهُمْ في بلادهم.

وترسل قريش أبا سفيان لتجديد الصلح وتدارك الأمر فيفشل أبو سفيان في مهمته ويرجع إلى قريش خائباً في أواخر شعبان.

فأرسل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) إلى المسلمين في جميع المناطق يأمر كل مسلم بالصيام في المدينة ولما اجتمعوا في المدينة بدأ يجهز الجيش وقد جعل على مداخل المدينة نقاطاً لمعرفة الداخل والخارج إلى المدينة كي لا يصل خبر الجيش إلى قريش.

- رسالة حاطب بن أبي بلتعة

احتشد بالمدينة عشرة آلاف مقاتل لَبَّوْا دعوة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله)! ولَمَّا أجمع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) المسير إلى مكة كتب حاطبٌ إلى قريش يخبرهم بزحف وشيك! ثم أعطاه امرأة، فَدَسَّتْهُ بين شعر رأسها! فنزل الوحي بما صنع حاطب! فدعى النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) عَلِيًّا والزبير، وقيل: معهما المقداد، فقال: انطلقوا إلى (روضة خاخ) فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى قريش يُحذِّرُهُمْ؛ فأدْرَكُوهَا وأنكرت الكتاب، وفَتَّشُوا رَحْلَهَا فلم يجدوا شيئًا! فقال لها علي بن أبي طالب (عليه السلام):

إنـي أحلـف بـالله مـا كَـذَبَ رسـول الله (صلـوات الله عليه وعلـى آله) ولا كُذبْنـا! وَلَتُخرِجـنَّ الكتـاب أو لأَكْشِفَنَّـك! فلمـا رَأَت الجِـدَّ منـه قالـت: أعرِضْ؛ فأعرَضَ، فَحَلَّتْ قرونها فاستخرجت الكتاب وناولته! فأتى به رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؛ فقال: يا حاطب ما هذا؟ فقال: إنـي لمؤمـن بالله ورسوله مـا غيّرتُ ولا بدَّلتُ، ولكنـي ملصق بقريش لا عشيرة لي، ولي بين أظهرهم ولد وأهل؛ فصانعتهم عليهم، فقال رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): إنه قد صدقكم!.

- السرية عامل مهم في الحروب

رسـول الله (صلـوات الله عليه وآله): «**اللهـم عَمِّ الأخبار عن قريش حتـى نأتيهم بغتة**» ويعظ المسلمين موضحاً لهم أن المشركين أعداءٌ للمسلميـن ونهاهم عن موالاة الأعداء ومـن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل.

ثـم تحـرك الجيـش فـي الثاني مـن رمضـان متجهـاً غير جهـة مكة فظنـت قريـش أنه يريـد غزو هـوازن وثقيـف فاطمأنت قريـش حتى إذا شارف الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) على جبال مكة ليلاً أمر كل رجل أن يشعل ناراً أو نارين للمباغتة والإرهاب لينهزم العدو.

ولـما رأت قريـش ذلك أصابها الذعـر والهلع وانهزمـت نفسياً وخرج أبـو سفيـان يتجسس فرآه العباس وقال لـه: إنه لا ينجيكم من القتل إلا الإسـلام ولـو رآك أحد المسلمين لقتلـك فاركب لآخذك إلى رسول الله. ثم أسلم أبو سفيان وأمَّنه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وأوقفه ليرى عشرة آلاف يمرون إلى مكة فاتحين.

أبو سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

العباس (رضي الله عنه) إنها النبوة يا أبا سفيان أولم تسلم فقال: نعم. الحكمة أنفع من السيف.

فوزع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) الجيش إلى كتائب تدخل من طرق مكة كلها ولم يصم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) والمسلمون ذلك اليوم ليقووا على القتال؛ ولأنهم في سفر، فهرب من هرب من قريش ولكن خمسمائة مقاتل تعاهدوا ألا يدخلها محمد وأيديهم قادرة على حمل السيف.

فقاتلوا ساعة من الزمن حتى قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً والمسلمون قد دخلوا من كل طريق فتفككوا وولوا هاربين وكان المنادي من جيش رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يقول: من دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن ومن رمى بسلاحه فهو آمن ومن تعلق بحلقة داره فهو آمن.

فكانت حكمة نبوية عظيمة وتفرق المقاتلون ودخل أهل مكة بيوتهم ودخل الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) مكة المكرمة على ناقته العضباء والكتائب الملمة تدخل من كل جانب.

- كيف دخل الرسول مكة؟

كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) عند دخول مكة بعد ثمان سنوات من إخراجهم له منها كان يتلو قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ ‹النمل من الآية:١٩› ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ‹الإسراء:٨٠-٨١›

فيدخل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فاتحاً شاكراً لله، متهلل الوجه وهو على ناقته يسبح الله ويستغفره حتى دخل المسجد الحرام فحطم الأصنام كلها وطاف على البيت ثم دخل الكعبة وركع فيها ثمان ركعات.

أروع صور العفو:

وخرج رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) من الكعبة يمشي إلى القرشيين وهم أسرى وهم ينظرون إليه نظرة العبد إلى سيده ثم وقف رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فقال لهم: «**ماذا تظنون أني فاعل بكم**».

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قد ملكت فاسجح.

الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله): «**إذهبوا فأنتم الطلقاء**».

هذا موقف يدل على عظمة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وعظمة الدين والمنهج الذي يسير عليه.

وهذا هو العفو الحقيقي لأنه عفا (عند المقدرة) وفي موقع قوة وليس في موقع ضعف.

من أهم الدروس في هذه الغزوة

- العفو عند المقدرة:

وهذه هي تعاليم الدين وتوجيهاته فالعفو والصفح في حالة الضعف ليس عفواً بل ذلاً واستسلاماً للطغاة والظالمين وليس موقفاً قرآنياً.

ولكن موقف الرسول هذا هو الموقف القرآني الحقيقي فهو تحرك وجاهد في سبيل الله ولم يخضع للظالمين والطغاة لا في مكة ولا في المدينة فلما انتصر كان عفواً رحيماً يعفو ويصفح كما أمره الله تعالى ما أعظمها من أخلاقيات.

فهؤلاء الطلقاء هم رؤوس قريش من بني أمية وغيرهم دخلوا الإسلام مكرهين فقلوبهم لا زالت كافرة تنتظر الفرصة للانقضاض على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وأهل بيته وعلى الإسلام من داخله.

ـ أن لا يغرق الإنسان في ذاتيته:

يقول السيد حسين رضوان الله عليه حول هذا الموضوع في مديح القرآن الدرس السادس:

أخطر شيء على الإنسان هو عندما يكون غارقاً في ذاتيته، في نفسيته، هذه هي المشكلة الكبيرة، مثلما إبليس، أخذ يتعبد، ومعارف، وأشياء من هذه، وفي مقام هناك مع الملائكة لكنه شخص غارق في ذاتيته! كل سنة، كل سنتين، وكل قرن وهو يلتفت إلى نفسه، وهذه هي التي جعلته في الأخير يسقط.

لكن الإنسان إذا بداياته صحيحة، ونفسه هو يثبِّت نفسه بأنه هكذا، ما هناك مجال لأن يغرق في ذاتيته، يفهم واحد بأن الباري لا يأتي [يخلطف] لأوليائه أبداً، أذا أنت تسير على طريقة صحيحة عشرات السنين بحيث أنه لم يبق بينك وبين الجنة؛ [إلا شبراً أو ذراعاً] مثلما في ذاك الحديث، وفي الأخير يمكر لك ، ويخلطف لك ليدخلك جهنم هذا غير صحيح!.

يأتي تثبيت إلهي، تثبيت متواصل، لكن إذا فيك خلل، إذا كان يوجد عندك بذرة خلل لا بد ما تكبر، وفي الأخير تغرق في الضلال؛ لهذا

ربطت الأشياء هذه كلها أن الله يقول للناس هم يسلِّموا أنفسهم إليه، وما لهم دخل من نفوسهم، هو سيجعل في دينه رفعة لهم، عظمة لهم، مجداً لهم، سموا لهم. هي بهذه الطريقة، مثلما حصل في القرآن بالنسبة للنبي نفسه (صلوات الله عليه وعلى آله) [بعد فتح مكة] هذه من الآيات العجيبة في سورة: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وتكلمنا كثيراً حولها، في الوقت الذي هو يحصل لأي إنسان، عمل إنجازات من ذلك النوع، يلتفت إلى نفسه، ويرى نفسه كبيراً! أليست هذه قد تحصل؟ يسحب ذهنيته يقول: لا، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أليس هكذا؟ في لحظة الإنجازات الكبيرة هذه اغرق في ماذا؟ في تقديسك لله، إنس نفسك نهائياً، واعرف بأنك ما تزال قاصراً ومقصراً، ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ استغفره، ترجو توبته. أليست هذه عبرة كبيرة جداً؟.

في نفس الوقت هل الله يأتي يضرب الإنسان لا يَكْبُر؟ لا، يأتي هو من الجانب الآخر يقول: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾«الشرح٤» ألم يرفع له ذكره؟ يقرن اسمه باسمه في الأذان، يقرن اسمه باسمه في الشهادة بالوحدانية، في التشهد للصلاة، أليس هذا حاصل؟.

هو لا يقول: لا نريد أن يكون لك رفعة. يقول هو: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾«الزخرف٤٤» لكن أن تأتي أنت، أنت تريد تبني نفسك مثلما نقول نحن يريد واحد هو، هو، هو غارق في ذاتيته، ما هو طالع على الإطلاق، سيحبط، وينحط، مهما رأى نفسه كبيراً، ويغرق في الضلال؛ ولهذا جعل الله القضية أكبر من أن تلتفت إلى ذاتيتك، إلى نفسك، نفس حمل المسؤولية، حمل المسؤولية هي جعلها بالشكل الذي تكون أكبر منك.

* * *

غزوة حُنَين

(في ١٠ شوال ٨ هـ فبراير ٦٣٠م)

لما سَمِعَتْ هَوَازِنُ بفتح مكة اجتمعت مع ثقيف وبني هلال تحت قيادة مالك بن عوف النضري ومعهم دُرَيدُ بْنُ الصِّمَّة شيخ كبير أحضروه لخبرته بالحرب وجودة رأيه؛ خرجوا وَهُمْ عازمون على إبادة رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله).

ولما سمع بهم نبي الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بعث إليهم عبدَالله بن أبي حَدْرَدَ الأسلَمِيِّ وأمره أن يدخل في الناس حتى يعلم علمهم؛ فعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فأخبره به فخرج (صلوات الله عليه وعلى آله) لمواجهتهم في اثني عشر ألفًا، منهم ألفان من مُسْلِمي الطلقاء. ويروى أن البعض من المسلمين دخل العجب إلى نفوسهم فقالوا: لن نهزم اليوم من قلة، هنا تكلم البعض لكن مشاعر الآخرين، الأغلبية قد تكون على هذا النحو وهذا ما ضرب المسلمين وسبب في هزيمتهم عندما تغيرت مشاعرهم.

وكان القوم قد سبقوا المسلمين إلى الوادي فَكَمَنُوْا لهم في شِعَابِه وأحنائه[جوانبه]ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا! يقول الراوي: فو الله ما راعنا إلا وقد شدوا علينا شَدَّةَ رجل واحد، وانشمر الناس [أي انفضوا وانهزموا] راجعين لا يلوي أحد على أحد! وانحاز رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ونادى في الناس:

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِالْمُطَّلِبْ

ثم قال: أيها الناس، هَلُمُّوا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله، فلم يَلْوُوْا على شيء، وحَمَلت الإبلُ بعضُهَا عَلَى بعض! إلا أنه قد بقي مع

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) نفر من أهل بيته وخلَّص أصحابه.

ولما انهزم الناس تكلم رجال من جفاة مكة بما في أنفسهم من الضِّغْن والحقد! فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وإنَّ الأزلام لَمَعَهُ في كِنَانَته[٧]! وصرخ جَبَلَةُ بْنُ الحنبل أخو صفوان لأُمِّه وهو مشرك: ألا بَطَلَ السحر اليوم! وقال شيبة بن عثمان-وكان أبوه قُتِلَ يوم أحد-: الْيَوْمَ أُدْرِكُ ثأري من محمد؛ فَأَرَدْتُ قتله! فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أُطِقْ ذاك! وعلمتُ أنه ممنوع مني.

عودة المسلمين إلى القتال:

عن العباس بن عبدالمطلب قال: إني لَمَعَ رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) آخذٌ بلجام بغلته البيضاء، وكنتُ امرأ جسيمًا شديد الصوت، وَرَسُولُ الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يقول حين رأى ما رأى من الناس: أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ فلم أَرَ الناس يلوون على شيء! فقال: يا عباسُ اصْرُخْ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة[٨]! قال: فصرخت؛ فأجابوا لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ! فذهب الرجل ليَثْنِيَ بعيره فلا يقدر على ذلك؛ فيأخذَ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذَ سيفه وتُرْسَهُ، ويقتحمَ عن بعيره ويُخَلِّيَ سبيلَه! فَيَؤُمَّ الصَّوْتَ حتى ينتهي إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، حتى إذا اجتمعَ إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار، ثم خَلَصَتْ أخيرًا: يا للخزرج؛ وكانوا صُبُرًا عند الحرب، فأشرف رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في ركائبه، فنظر إلى القوم وهم يجتلدون فقال: الآنَ حَمِيَ

(٧) الأزلام: السهام التي كانوا يستقسمون بها ويخضعون لحكمها.

(٨) السمرة: شجرة الرضوان التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.

الوَطِيسُ[٩]! وصدق المقاتلون من المسلمين، وأخذ النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) كَفًّا من حصباء، وضرب به المشركين وقال: شاهت الوجوه فانهزموا! واسْتَحَرَّ القتل في بني مالك من ثَقيف، فقتل منهم سبعون تحت رايتهم، وتفرق المنهزمون: فمنهم مَنْ ذهب إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف، وبعضهم بأوطاس، وبعضهم بنَخْلَة .

وفي يوم حنين نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾«التوبة».

الرسول يشيد بالأنصار بعد معركة حنين:

عن أبي سعيد الخدري قال: لَمَّا أعطى رسولُ الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ؛ وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كَثُرَتْ منهم القَالَةُ[١٠]، حتى قال قَائِلُهُمْ: لقي رسولُ الله (صلوات الله عليه وعلى آله) قومَه! فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وقال: إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لِمَا صَنَعْتَ في هذا الفيء: أعطيت قومك وسائر العرب عطايا عِظَامًا! ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء! قال: فأين أنتَ

(٩) الوطيس: التَّنُّورُ. مختار الصحاح ص ٧٢٧.

(١٠) القالة: الكلام البذيء، أي قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا! وسيوفنا تقطر من دمائهم!

من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا من قومي! قال: فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة؛ فلما اجتمعوا جاءهم، وجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فَرَدَّهُمْ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم؟ وَجِدَةٌ[11] وجدتموها عَلَيَّ في أنفسكم؟! ألم آتكم ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ الله! وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ الله، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبكُمْ؟! قالوا: بلى، الله ورَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ! ثم قال: ألا تُجِيبُونَنِي يا مَعْشَرَ الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله وَلِرَسُوله الْمَنُّ وَالفَضْلُ! قال (صلوات الله عليه وعلى آله): أَمَا وَاللّه لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ[12]! أَوَجَدْتُّمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ[13] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللّه إِلَى رِحَالِكُمْ؟! فَوَاللّه لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ! فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ؛ اللهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ! قَالَ: فبكى القومُ حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ [بَلَّلُوهَا]، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْمًا وحَظًّا، ثم انصرف رسولُ الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وتفرقوا.

---

(١١) الجِدَةُ: الغَضَبُ، أَصْلُهَا وِجْدَةٌ؛ فحذفت الواو تخفيفًا؛ لأنها في الطَّرَف
(١٢) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.
(١٣) اللُّعَاعَةُ: بالضم: البقية اليسيرة.

العبر والدروس

أهم درس من هذه المعركة هو:

أن يظل ارتباط المؤمنين بالله قوياً مهما كانت قوتهم:

وهذا ما أشار إليه السيد حسين رضوان الله عليه عندما قال في معنى التسبيح:

ففي مسيرة العمل، عندما يكون الموقف مع الله موقفاً ثابتاً... تنزيهه، نزاهته لا يمكن أن يخلف وعده أبداً. فمتى ما مر الناس بصعوبة ما رجعوا إلى أنفسهم، وإلى واقع الحياة: ربما خطأ حصل من عندنا ونحن نرتب المسألة على هذا النحو، وربما خطأ حصل من عندنا أنه ضعفت ثقتنا بالله عندما رأينا أنفسنا كثيراً.. كما حصل في يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾‹التوبة: من الآية٢٥›؛ لأنهم رأوا أنفسهم كثيراً وكانوا ما يزالون بعد نشوة النصر بعد فتح مكة فاتجهوا لقتال هوازن، وبعض القُبُل الأخرى، فقال البعض: [لن نهزم اليوم من قلة] رأى جموعاً كثيرة، لن نهزم اليوم من قلة. وعندما يكون هذا الشعور داخل الكثير، بدل أن تكون النفوس ممتلئة باللجوء إلى الله، واستمداد النصر منه، والتأييد منه، الذي تعبر عنه الآية: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾‹البقرة: من الآية٢٥٠› لن نهزم اليوم من قلة.. فهزموا هزيمة منكرة.

الإيمان على هذا النحو هو الذي يدفع الناس إلى أن يرجعوا إلى أنفسهم فيصححوا أخطاءهم ويكتشفوا أخطاءهم، ويُحَسِّنوا من

أوضاعهم، ويُحْسنوا خططهم، ويُحْسنوا تصرفاتهم، ويظلون دائماً، دائماً مرتبطين بالله مهما بلغت قوتهم، مهما بلغ عددهم، يظل ارتباطهم بالله قوياً، ارتباطهم بالله وهم مائة ألف كارتباطهم بالله يوم كانوا ثلاث مائة شخص، أو أقل.. متى ما انفصل الناس عن الله، ورأوا أنفسهم وكأنهم في حالة لا يحتاجون معها إلى تأييد من الله سيضربون، سيضربون.. [لن نهزم اليوم من قلة] هي التي ضربت المسلمين في حنين.

❊ ❊ ❊

غزوة تَبُوك

(في رجب ٩ هـ - أكتوبر ٦٣٠م)

تبوك تقع شمال الجزيرة العربية تبعد عن مدينة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) حوالي ٧٥٠ كيلو متراً تقريباً. وكانت بلاد الشام وما حولها تحت النفوذ الروماني المباشر أو تحت من يدينون بالولاء للدولة الرومانية.

في السنة التاسعة للهجرة بلغ المصطفى (صلوات الله عليه وعلى آله) أن الروم يحشدون جيشاً لقتال المسلمين، فندب المسلمين وحثهم لملاقات الروم والتصدي لهم بحزم وقوة فهذا الأمر لا يمكن السكوت عليه أو التغاضي عنه، وبعث رسلاً إلى مكة وإلى قبائل العرب يحثهم على الجهاد والاستنفار للجهاد وحث الناس على الجد والاجتهاد وبين لهم أن هذه الغزوة تختلف عن غيرها فالمسافة بعيدة والوقت حار والعدو مختلف فلديه الجيوش والإمكانيات الكبيرة حتى يكونوا على كامل الاستعداد.

فكانت هذه الغزوة اختباراً من الله سبحانه وتعالى لعباده المنضوين تحت راية الإسلام ليميز الله الخبيث من الطيب والصادق من المنافق، فالشدائد ومصاعب الجهاد هي المعيار في غربلة الناس وهي الكفيلة بالتمييز بين العباد، فلا يثبت فيها وينجح إلا الرجال المخلصون الذين يجعلون رضا الله همهم ونصب أعينهم، أما الذين يجعلون الدنيا أكبر همهم ولا يجعلون للآخرة عندهم أي اعتبار فسريعاً ما يخسرون.

وقد قص الله علينا هذه الغزوة في سورة التوبة وغيرها، وكشف المنافقين على حقيقتهم وتآمرهم على الرسول (صلوات الله عليه وعلى

آله) وعلى الإسلام فالمنافقون خطرهم عظيم في كل وقت وزمان.

كان في هذه الغزوة أصناف شتى من الناس فمنهم من أبطأ عن طاعة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) رغبة في العاجل وحرصاً على المعيشة وإصلاحها وخوفاً من شدة الحرِّ وبعد المسافة، ونهض بعضهم على استثقال وتخلف آخرون، والبعض الآخر يختلقون الأعذار والمبررات وهم ناوون على القعود مع الخوالف سواء أذن لهم الرسول أو لم يأذن، وهناك الرجال الأوفياء الذين استجابوا لله ورسوله لا يتراجعون في أي ظرف كان أو مقابل أي عدو، يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله همهم رضا الله وإعلاء كلمة الله فكانوا هم الفائزين.

كما حث رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) على الصدقة والإنفاق في سبيل الله لتمويل الجيش فأخرج الناس صدقاتهم فكان منهم أناس يخرجون ما قدروا عليه من الصدقة قلَّت أم كثرت استجابة لرسول الله وابتغاء رضوان الله، ومنهم من يريد بصدقته أن يُشار إليه ويُقال عنه.

أحد الصحابة المخلصين لم يكن لديه إلا صاعاً من بر فأخرجه في سبيل الله على استحياء لقلته، فجاء إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وقال يا رسول الله هذا ما قدرت عليه، فقال له رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): «**بارك الله فيك وعليك**»، وأمره أن ينثره على كومة الصدقة ففعل ما أمره رسول الله به، فسخر منه بعض الحاضرين من الصحابة فنزلت آية من كتاب الله تحكي لنا هذه القصة: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (التوبة: ٧٩).

أما سبعة نفر من الفقراء من الذين استجابوا لله ورسوله لم يكن لديهم شيء من المال فذهبوا إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يسألونه أن يعطيهم شيئاً من المال ليستعينوا به على الخروج فرد عليهم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله): ﴿قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة:٩٢) فأعفاهم الله عن الخروج وأنزل فيهم قرآناً يتلى في سورة التوبة.

سمي ذلك الجيش بجيش العسرة لأنه كان وقت عسرة من الناس وشدة في الحر وجدب في البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام.

لما جهز رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) الجيش دعا علياً (عليه السلام) وقال له: «يا علي إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك فأنت خليفتي فيها» لأنه (صلوات الله عليه وعلى آله) يعلم من خبث المنافقين واليهود والأعراب والكثير من أهل مكة فلم يأمن جانبهم أن يعيثوا فيها فساداً.

وخرج (صلوات الله عليه وعلى آله) بالجيش يوم الخميس وكان يستحب الخروج فيه في جيشٍ قوامه ثلاثون ألفاً معهم عشرة آلاف فرس.

كان عبد الله بن أبيَّ بن سلول رئيس المنافقين قد عسكر في ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين فرجع ومن معه.

لما علم المنافقون استخلاف رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) علياً على المدينة عظم عليهم مقامه وضاقوا به فأخذوا يشنون عليه الدعايات والأكاذيب من أجل أن يغادر المدينة حتى يتسنى لهم

تنفيذ مؤامراتهم وإثارة الفوضى في المدينة وقالوا: إنما استخلفه رسول الله لأنه تثاقله.

فلما سمع علي بما يقوله المنافقون أخذ سلاحه ولحق برسول الله حتى أتى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو نازل بالجرف فقال يا رسول الله إن المنافقين قالوا إنما استخلفتني لأنك استثقلتني فقال (صلوات الله عليه وعلى آله): «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**».

فقال علي: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي ثم رجع.

وكان من الذين تخلفوا من غير شك ولا ارتياب رجل اسمه أبو خيثمة السالمي فجاء إلى أهله بعد أن سار رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أياماً في يوم حار فوجد زوجتيه في عريشين لهما وقد بردتا له ماء وهيأتا له طعاماً فقام على باب العريشين فنظر إليهما وما صنعتا له فقال: رسول الله في الحر والريح وأبو خيثمة في ظلال بارد وماء بارد في أهله وماله مقيم، والله ما هذا بالإنصاف والله لا أدخل لكما عريشاً حتى ألحق برسول الله هيئا لي زاداً فهيئتا له زاداً وأخذ راحلته وارتحل حتى لحق برسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بتبوك.

فلما كان (صلوات الله عليه وعلى آله) ببعض الطريق ظلت ناقته فخرج أصحابه في طلبها فقال رجل من المنافقين أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.

فقال (صلوات الله عليه وعلى آله) لما بلغه ذلك: «**إني والله لا أعلم إلا ما علمني ربي وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها**» فذهبوا فوجدوها حيث قال.

وفي أثناء السفر كان يتخلف الرجل تلو الرجل حتى قيل تخلف أبو ذر وكان قد أبطأ به بعيره فأحزنه تأخره عن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فكان يتلوم على بعيره، لكنه لم يصبر عليه طويلاً فأخذ متاعه من على ظهر بعيره وحمله ومشى وترك البعير وأخذ يتتبع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ماشياً فنزل رسول الله في بعض منازله، فنظر بعض المسلمين فقال إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال (صلوات الله عليه وعلى آله): «**كن أبا ذر**»، فلما تأملوه قالوا هو أبو ذر، فقال (صلوات الله عليه وعلى آله): «**يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده**».

في هذا السفر وهذه الغزوة حدثت قصص ومواقف وأحداث يجب أن نقف عليها في تأمل وتفكر، ونأخذ منها العبرة والدروس لنا في حياتنا وواقعنا اليوم.

كان رهط من المنافقين يسيرون مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأني بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

فقال (صلوات الله عليه وعلى آله) لعمار: «**أدرك القوم فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قد قلتم كذا وكذا**»، فأتوا رسول الله (صلوات الله عليه وآله) يعتذرون وقال بعضهم كنا نخوض ونلعب فنزلت آية ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ

كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ ‹التوبة: ٦٤-٦٦› ولما انتهى (صلوات الله عليه وعلى آله) إلى تبوك عسكر فيها وجهز جيشه وصفه للقتال وكان معسكر الروم في الجهة المقابلة فلما رأوا جيش المسلمين وقد علموا من استبسالهم تراجعوا وكفى الله المؤمنين القتال، فأتاه (يحنه) صاحب (إيلة) فصالح رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وأعطاه الجزية، وجاء أهل (جرباء وأذرح) فأعطوه الجزية، ثم جاء أمراء تلك المناطق واحداً تلو الآخر وصالحوا رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، وأقام (صلوات الله عليه وعلى آله) بتبوك عشرين ليلة ثم عاد راجعاً إلى المدينة بعد أن دانت له الجزيرة العربية.

وفي أثناء العودة كان في الطريق ماء يخرج من وشل يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادي المشقق. وكان قد وجههم أن من سبق إليه فلا يستقين منه حتى نأتيه فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلما رآه قال من سبقنا إليه قيل فلان وفلان فلعنهم ودعاء عليهم ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يده ثم نضحه ودعاء فخرج الماء فشرب الناس واستقوا، والعجب العجاب أن أناساً من أصحاب رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) تآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق فأخبره من يعلم السر وأخفى وفضح المتآمرين المنافقين والحمد لله رب العالمين.

ولما اقترب (صلوات الله عليه وعلى آله) من المدينة أثناء عودته نزل قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّٰهَ﴾ ‹التوبة: ١٠٧›.

وقد كان زمرة من المنافقين بنوا هذا المسجد ليتستروا به ويحيكوا من داخله المؤامرات ومأواً لمن حارب الله ورسوله فأمر رسول الله

(صلوات الله عليه وعلى آله) بهدمه وإحراقه وجعله مكاناً للقمامة.

ثم وصل المدينة فاستقبله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فكانت هذه الغزوة الوحيدة التي لم يخرج فيها علي (عليه السلام) ولم يحدث فيها قتال.

ودخل رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) المسجد فوجد ثلاثة رجال قد ربطوا أنفسهم في سارية المسجد كانوا من الذين تخلفوا عن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فندموا ندماً شديداً وهداهم الله إلى التوبة وتابوا وربطوا أنفسهم في سارية المسجد حتى يكون رسول الله هو الذي يحل رباطهم فنزلت الآية: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ‹التوبة:١١٨›.

الدروس والعبر

السيد حسين في محاضراته ودروسه تحدث كثيراً عن هذه الغزوة لأن فيها الدروس الكثير من ذلك ما ذكره في [يوم القدس العالمي] حيث قال:

لو يرجع المسلمون في مواجهتهم للغرب ولليهود إلى [غزوة تبوك] وحدها في السيرة، وإلى [سورة التوبة] التي توجهت نحو هذه الغزوة لكانت وحدها كافية لأن يأخذ المسلمون منها دروساً كافية في معرفة مواجهة اليهود، ودول الغرب بكلها.

من هذه الدروس ما تحدث عنه رضوان الله عليه في آل عمران الدرس الثاني:

١) الالتجاء إلى الله والثقة به:

عندما كانت البلاد العربية مستعمرة من قِبَل البريطانيين، والفرنسيين، والإيطاليين، وغيرهم كيف كان يحصل؟ كان معظم ما يحصل - عندما كانت النظرة كلها منعدمة نحو الثقة بالله سبحانه وتعالى، الثقة بالله منعدمة في نفوس المسلمين - كان من يريد أن يتحرر من هذا البلد يلجأ إلى هذا، يتحرر من بريطانيا يلجأ إلى روسيا، يتحرر من روسيا يلجأ إلى بريطانيا، يتحرر من إيطاليا يلجأ إلى فرنسا، من فرنسا يلجأ إلى إيطاليا وهكذا. ما هي النتيجة في الأخير؟ ما هي سواء؟ تخرج من تحت بريطانيا تدخل تحت روسيا، كله واحد.

الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمنا بأن دينه يستطيع أن يجعلنا أمة مستقلة، تقف على قدميها، عزيزة، رافعة رأسها، تقهر الأمم الأخرى، ما الذي يحصل الآن؟ أليس كل العرب يتجهون إلى أمريكا لتفكهم من إسرائيل؟ ولو أن أمريكا هي المحتلة وإسرائيل هناك للجئوا إلى إسرائيل تفكهم عن أمريكا! يلجئون إلى أمريكا وروسيا راعيتا السلام أن تفك فيهم من إسرائيل.

النظرة القاصرة التي أراد الله أن يمسحها من أذهان العرب - لو تربوا على دينه، لو تربوا على نهج نبيه (صلوات الله عليه وعلى آله)....

وكان أبرز مثال على هذا ما عمله هو في ترتيبات [غزوة تبوك]؛ لأنه كان رجلاً قرآنياً (صلوات الله عليه وعلى آله) يتحرك بحركة القرآن، ويعرف ماذا يريد القرآن أن يصل بالأمة إليه في مناهجه التربوية وهو يربي نفوسهم كيف تكون كبيرة، كيف تكون معتزة بما بين يديها من هذا الدين العظيم فلا تحتاج إلى أي قوى أخرى.

٢) نتعلم من غزوة تبوك وسورة التوبة كيف نواجه دعايات المنافقين وإرجافهم:

يقول السيد حسين رضوان الله عليه في [دروس المائدة الدرس الرابع]:

سورة التوبة تحدثنا عن وضع غير طبيعي حصل في أيام إعداد الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أولئك الناس، ذلك المجتمع لمواجهة الروم في غزوة تبوك، ما الذي حصل؟ تثاقل، تباطؤ، تخلف، قعود، وآيات القرآن في سورة التوبة تهاجم، وتدفع بعبارات قاسية، بعبارات تعتبر بالنسبة للشخص الذي يتقاعد ويتخلف إهانة تعتبر إهانة له، عملية دفع، عملية زعزعة، محاولة تشجيع، وحركة نفاق تبدو على أوسع نطاق. لاحظوا [سورة التوبة] - عندما ترجعوا إليها - كيف مُلأت بحديث عن المنافقين؛ لأنهم تحركوا بشكل كبير.

وعادة عندما يتحرك منافقون بأعداد كبيرة منهم معروفون، ومنهم غير معروفين، ومنافقون ألوان: منهم من هو لا يزال كافر في باطنه مظهر للإسلام، ومنهم من هو مسلم، ولكنه مازال من النوعية التي في قلبه مرض، من النوعية التي يؤثر مصالحه، من النوعية الذي يؤثر أنانيات، ونظرات معينة لديه، أعداد كبيرة تحركت، وعندما يتحرك المنافقون في ظروف كتلك يدل على أن المجتمع أصبح في ما ظهر عنه قابل لأن يُزعزع، ويُثبَّط.

فالقرآن دفعهم دفعاً رهيباً في غزوة تبوك، مع أن الله يعلم أنهم لن يواجهوا بقتال، أخرجوا، حتى ثلاثة أشخاص عندما تخلفوا ماذا كان موقف النبي منهم (صلوات الله عليه وعلى آله)؟. قال: لا تكلموهم.

٣) الرسول قدم درساً مهماً للأمة كيف تكون معتمدة على نفسها وعلى ربها:

فقد كان استنفاراً عاماً لأن المسألة كان الجانب التربوي فيها للأمة أكثر من احتمال المواجهة العسكرية من خلال القرآن نفسه، خرجوا متثاقلين، ووضع اقتصادي سيئ، ومعنويات هابطة جداً، هم عدد قليل سيواجه أكثر من مائة ألف أو من مائة وثلاثين ألف جندي حشدتهم دولة الرومان. خرجوا بتثاقل، وتباطؤ ومعنويات هابطة وزحزحة. ما الذي حصل؟.

ولم يحاول الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يعود إلى دولة كسرى، إلى دولة الفرس وهي كانت أيضاً الدولة العظمى الثانية في ذلك العصر ليستمد منها؛ لأنه سيواجه دولة كبرى، والدولة هذه لا تزال في صراع مستمر مع دولة الفرس فتكون فرصة مهيأة له بأن يحصل على دعم من الفرس، من الأكاسرة فيشدوا أزره فيهاجم دولة الرومان، لم يحصل هذا، ولم يحاول، بل لم يفكر في هذا. أراد أن يربي هذه الأمة كيف تكون معتمدة على نفسها، وعلى ربها، وعلى كتابها، وعلى نبيها؛ لأنها تملك ديناً قيِّماً يستطيع هذا الدين أن يجعلها تقف على قدميها دون أن تحتاج لا إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى أمريكا ولا إلى روسيا، ولا إلى أطراف أخرى.

خرجوا متثاقلين، جمعوا نحو ثلاثين ألفاً بعد الحشد والاستنفار العام، والحشد الهائل والدفع الهائل، ثلاثين ألفاً توجهوا على بعد سبع مائة وخمسين كيلوا من المدينة باتجاه الشام.

فبدا رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) شخص وكأنه - أمام الآخرين - لا يدري من سيواجه، إذاً أحشد هذا الحشد، لكن حاول

أن تضع هذا الحشد في أماكن تحصن منه البلد الإسلامي الذي قد أصبح بين يديك، واتسعت رقعته بين يديك.. لا. هو الذي هاجم وبادر بالهجوم هو، ليهاجم بأولئك الجيش، أو بذلك العدد، ذا النفسيات الهابطة، والمعنويات المنحطة، على بعد، إلى أعماق، إلى أقرب منطقة للدولة الرومانية، إلى تبوك.

الروم أزعجهم هذا أزعجهم فقرروا عدم المواجهة، ما الذي حصل؟. وتحرك رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو ما يزال في تبوك تحرك بسرايا هنا وسرايا هناك، وعمل أعمالاً يتحدى، يتحدى فارتفعت معنويات الناس بشكل رهيب جداً، خرجوا وهم يرون الروم مستحيل أن يواجهوهم.

بل كان المنافقون، وبعض من تخلفوا من الأعراب تشجعوا إلى أن يدبروا مؤامرة ضد رسول الله في المدينة نفسها ليمسحوا الدولة الإسلامية بكلها فترك لهم علياً، علي هو صمام الأمان للدولة الإسلامية سيبقى في المدينة بعده، وهو من يخرج إلى أقصى منطقة.

ولهذا المنافقون عملوا دعاية ضد علي (عليه السلام): أنه إنما خلفه في النساء والأطفال، أنه إنما استثقله، كره خروجه معه. فلحق علي (عليه السلام) برسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فقلده ذلك الوسام الذي أبكم المنافقين، وكمم أفواههم: «**أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**» فعاد علي (عليه السلام) إلى المدينة ورسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) توجه لقيادة الجيش إلى (تبوك).

رجعوا من تبوك وهم كل واحد أصبح اثنين، ثلاثة في داخل ردائه وإزاره، قهروا الدولة العظمى في ذلك العالم وبدون مواجهة.. ففيما

بعد بقيت معنوياتهم مرتفعة.. رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان يريد شيئاً عظيماً للأمة، يرفع معنوياتها، يربيها، يشد من أزرها، يقوي إيمانها، يربيها كيف تعتمد على نفسها، وفي نفس الوقت اختار لها القائد المُهِم العظيم الذي هو جدير بقيادتها علي بن أبي طالب في قادم الأيام.

٤) التعبئة العامة وخطورة الصمت في مواجهة أهل الكتاب:

يقول السيد حسين في درس[وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن]:

القرآن الكريم جعله الله نوراً للمؤمنين، نوراً للمسلمين يهتدون به قبل أن تهجم عليهم الظُّلْمة، يتحركون هم على أساسه قبل أن يهجم عليهم العدو إلى عُقرِ ديارهم، سواء بفساده، أو أن يصل بقدمه وبنفسه، ألم يتحرك الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) هو في غزوة [تبوك] ليهاجم هو، وعلى مسافة طويلة جداً من المدينة نحو (٧٥٠ كم) إلى تبوك ليواجه دولة عظمى في ذلك الزمن هي دولة الرومان.

أراد أن يقول لأمته: إن من ينتظرون، ويصمتون هم من سيكونون أذلاء إذا ما هجم عليهم العدو، هم من سيكونون معرّضين لأن يُفتنوا عن دينهم، ولأن يتنازلوا ببساطة عن دينهم إذا ما هجم عليهم العدو إلى داخل ديارهم، الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) ربّى المسلمين على الاهتمام، ربّى المسلمين على المبادرة، ربى المسلمين على استشعار المسؤولية، على أن تكون لديهم روح وثّابة داخل كل شخص منهم، روح جهادية روح تستشعر المسؤولية فتنطلق، لا تنتظر الأعداء وإن كانوا كباراً، وإن كانوا يمتلكون مختلف وسائل القوة، لا ينتظرونهم حتى يهجموا عليهم.

القرآن الكريم في (سورة التوبة) - وسورة التوبة هي من أجمل السور في القرآن الكريم في مجال التعبئة العامة للمسلمين في مواجهة أعدائهم - تناولت كل مواضيع المواجهة، أولئك الذين ينطلقون للتثبيط هاجمتهم مهاجمة قوية، توبيخ عنيف، سخرية منهم استهزاء بهم، تحطيم لمشاعرهم، وفعلاً الإنسان الذي يتجه إلى الحق، ويكون موقفه موقف حق لا تتوقع أن بإمكان الباطل أن يقف أمامك إلا إذا حصل تقصير من جانبك، أو أنت لم تهيئ نفسك بالشكل المناسب في أسلوبك، في تقديمك للحق بأن يكون بالشكل الذي يزهق الباطل.

ألم يقل المنافقون في ذلك العصر أيام رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) عندما انطلق المسلمون لمواجهة دولة الروم، ودولة الروم كما تواجه أمريكا الآن: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ مساكين مغفلين يذبحون أنفسهم، كيف باستطاعتهم أن يؤثروا على دولة عظمى؟! لا، إن المغرورين هم أولئك، هم الذين غرّوا أنفسهم.

وجاء القرآن الكريم ليؤكد أيضاً أن من يتخذون قرارات كهذه - ليقعدوا - إنهم لن يسلموا وهم من ستنالهم العقوبة بأضعاف أضعاف من الآلام والنقص أكثر مما يعاني منه المجاهدون.

٥) المبادرة والمسارعة:

يقول السيد حسين في [سارعوا إلى مغفرة من ربكم]:

كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، كانت صفة المبادرة، المسارعة، من أبرز الصفات لديه، لا يوجد عنده تثاقل، ولا تردد، ولا ترجيحات، ولا [عسى ما بو خلة، عسى] كان لديه طبيعة المبادرة.

في غزوة [تبوك] استخدم هذا الجانب، جانب المبادرة، وكان جانب المبادرة هذا هو الذي جعل الرومان - وهم أكثر قوة، وأكثر عدداً - يتراجعون، ويقررون عدم المواجهة مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؛ لأنه حرك الناس.

عندما بلغه بأنهم قد تجمعوا في الشام، يريدون أن يهجموا على بلاد الإسلام حرك الأمة، والقرآن حركهم أيضاً بآيات ساخنة، يخرجون حتى وإن كانوا [في وقت شدة]، حتى عندما صادف وقت شدة، وقت قلة ثمر، أو الثمر ما قد حصل. ما قال ننتظر حتى ينضج التمر، والثمار تحصل حتى يكون لدينا قدرة أننا نمول نفوسنا، ونخرج.

لا بد أن يخرجوا، وبادر هو بالزحف، وانطلق إلى تبوك، وبين تبوك وبين المدينة حوالي [٧٥٠ كيلوا]! يعني: دخل هو إلى أقرب منطقة من المناطق في بلاد الشام، رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ومعه ثلاثين ألف، قد حشدهم من الناس جيد وفسل، هيا يخرجون.

هكذا كانت سيرة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله)؛ لأن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان رجلاً قرآنياً، رجل يتحرك بحركة القرآن، يجسد القرآن، يفهم معاني القرآن، وغايات القرآن، ومقاصده، وأساليبه، ومنهجه.

❊ ❊ ❊

وهكذا تمكن النبي في فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع بكله

وهكذا تمكن الرسول صلى الله عليه وآله بما منحه الله من حكمة ومؤهلات قيادية عظيمة وبالهدى الذي أتى به من عند الله، وبجهاده وصبره وتضحياته العظيمة هو والمؤمنون معه تمكن وفي فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع بكله، وبنور الله محا ظلمات الجهل، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وطهر الجزيرة العربية من تلك المفاسد والرذائل، وأحدث تغييراً كبيراً، وحول ذلك المجتمع الجاهلي إلى مجتمع تسوده مكارم الأخلاق، يعبد الله ويجاهد في سبيله، ويحمل قضية عظيمة مقدسة، وأرسى دعائم العدل، دعائم العدل وحقق الأمن والسلام والعزة، وأعاد للإنسان كرامته الإنسانية، وقوض الإمبراطوريات الظالمة، وبنا أمة قوية موحدة عزيزة زاكية آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر مصلحة في الأرض، وتحقق لها رفاه العيش وكرامة الحياة.

أمة في داخلها الرحمة والتكافل والتآخي والتعاون، وفي مواجهة أعدائها قوية صلبة ثابتة لا تقبل بالإذلال ولا بالضيم كما قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللّه وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً﴾ ‹الفتح:٢٩›.

لم يكن النبي يفرض هيمنة شخصية على الناس:

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يفرض هيمنة شخصية له على الناس، لم يكن يريد من الناس أن يسيروا في حياتهم وفق مزاجه، ووفق هواء نفسه، وأن يأمرهم بما يريد هو، ويفرض عليهم شيئاً من نفسه على الإطلاق، على الإطلاق.

الرسول كان فقط يسير بالناس معه على ضوء تعاليم الله، يُعبِّد الناس لله فقط، لا يعبدهم لنفسه، لا يفرض عليهم أشياء لنفسه، ومن أجله هو، أو من عنده هو، كان مع الناس، مع الناس متبعاً، متبعاً لهدى الله، متبعاً لما أنزل الله، يبلغ رسالات الله وأوامر الله ثم يطبقها مع الناس، يعمل بها مع الناس، لكن ما يريده منا الزعماء العرب هو أكثر مما كان لرسول الله، لم يكن لرسول الله أن يأمر من نفسه، وأن يُسيِّر الناس على نفسه، أن يتحكم على الناس بشيء من نفسه هو، كان يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكان يتقيد بأوامر الله، يأمر بما أمر الله وينهى عما نهى الله؛ لأنه لا يريد أن يكون الناس عبيداً إلا لله، إلا لله، أما هؤلاء فإنهم يريدون أن يستعبدونا، أن يُسيِّرونا في حياتنا وفي مواقفنا على أهوائهم، لمصالحهم الشخصية، لأطماعهم، أن يستذلونا، أن يقهرونا، أن يستعبدونا، وهذا شيء غير مقبول فلم يكن حتى لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

الإسلام يربي رجالاً يواجهون المستكبرين:

الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قام بمسؤوليته على أكمل وجه، وبلغ البلاغ المبين، وجاهد في سبيل الله؛ لأن الله جل شأنه جعل إقامة هذا الدين يقترن بها الجهاد في سبيل الله، الله يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد: من الآية ٢٥) أنزل الله مع الكتاب وأنزل مع الرسل الحديد، الحديد.

إن الإسلام الذي جاء به محمد يربي رجالاً يحملون الحديد فيذودون به عن هدى الله، ويواجهون به الطغاة، ويواجهون بالحديد المستكبرين، ويواجهون بالحديد الطامعين الذين يريدون أن يطفئوا دين الله.

إن دين الله يربي رجالاً، ينتج رجالاً، ينتج أبطالاً يخلعون ثوب الذل، وكذلك يكونون بعيداً عن السكينة المسكنة والهوان والإذلال والتعاسة، رجالاً أعزاء بعزة الله العزيز، وبعزة رسوله العزيز، وبعزة القرآن العزيز، أنزل الله الحديد ليكون أبناء الإسلام، أمة محمد، أتباع محمد رجالاً يحملون الحديد فيدافعون بالحديد عن أنفسهم، وبالحديد الذي حمله رسول الله درعاً، وبالحديد الذي حمله رسول الله سيفاً، وبالحديد الذي حمله رسول الله سهماً، تحرك رسول الله كأعظم قائد عسكري وبطل ورجل عظيم ليقارع الطغيان، ليقارع المنكر، واجه اليهود وهزمهم، وواجه مشركي العرب وطغاة العرب، والمفسدين من العرب وهزمهم، وواجه أيضاً النصارى بكل إمكانياتهم العسكرية وانتصر عليهم.

هذا هو رسول الله الذي خاض الكثير من المعارك ذوداً عن الحق، من أجل المستضعفين، من أجل المظلومين، من أجل إقامة الحق، من أجل إزالة الظلم وإزالة الطغيان، على هذا الأساس قام الدين، وقام الحق، وقام العدل، وأصبح للمسلمين كيان عزيز، وكيان مقتدر وقوي.

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بجهاده العظيم حتى وهو يحتضر على فراش الموت كان قد أعد سرية جهادية، أعد جيشاً مجاهداً وهو يقول: «**أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة**»، بهذه الجهود العظيمة التي بذلها (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يبلغ ثم وهو يقاتل، ثم وهو يربي، ثم وهو يعلم، ثم وهو يصلح، بهذه الجهود العظيمة قام للإسلام كيان عزيز وعظيم وقوي.

كيف يجب أن يكون ارتباط الأمة بنبيها؟

أراد الله لهذه الأمة أن تكون مرتبطة بنبيها الارتباط القائم على أساس الولاء الصادق والطاعة، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ «الأحزاب:٦» ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ «النساء: ٦٤» أمة تقتدي بنبيها، تتعرف على هذا النبي، على صفاته، تستفيد من هديه، تستفيد من حياته، من منهجه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ «الأحزاب: ٢١».

والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتحرك ضمن مسؤولية عالمية، مسؤولية عامة، فمسؤوليته هو وأمته مسؤولية ترتبط بالناس عموماً وليس بالعرب خاصة، مسؤولية ترتبط بالعالمين، كما يقول الله جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «الأنبياء: ١٠٧»، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ «الأعراف:١٥٨» .

نصل إلى نتيجة مهمة: أنه يتحقق للناس من خلال اتباع الرسول والقرآن التحرر من عبودية الطاغوت المذلة والسيئة والتي هي شر محض، ويتحقق لهم عبادة الله بشكل صحيح في إقامة دينه متكاملاً بما يحقق الخير لهم والعزة والفلاح، ولا يمكن أن يقبل الله من عباده أن يطيعوه في بعض الأمور المحدودة وما تبقى من أمورهم للطاغوت، كما يتصور البعض - وهم مخطئون - أنه يكفي من حياتنا خمس خصال لله والباقي من كل شؤون حياتنا ومواقفنا تكون على ما يريد الطاغوت، هذا خطأ كبير.

فالله جل شأنه يقول في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ ‹البقرة:٢٥٦›، ومن خلال هذه الآية القرآنية المباركة يتضح أنه لا يتحقق الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت، ومن هذا المنطلق بعث الله خاتم رسله وأنبيائه محمد (صلى الله عليه وآله) بمشروع متكامل عظيم مرتبط بملك الله ورحمته؛ لإصلاح البشرية ودفعها إلى عبادة الله، وإنقاذها من الطاغوت والظلم والهوان، ولتحقيق العدل، وإتمام مكارم الأخلاق، والسمو بالإنسان ليقوم بمسؤوليته في الحياة مع مبدأ الثواب والعقاب، كما يقول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ ‹الأحزاب: ٤٥-٤٨›.

وأخيراً

فإنه بالرغم مما واجهوا به الإسلام في ذلك العصر سواء من داخل المتنفذين في داخل المنطقة العربية أو بالتحالفات مع اليهود أو من خلال ما قامت به أكبر دولة في ذلك العصر الروم حيث شنت حربا على الإسلام والمسلمين في ذلك العصر ورغم أن بداية انتشار هذا الحق وقيامه على أيدي فئة من المستضعفين من المستضعفين وبإمكانيات مادية محدودة رغم حجم المؤامرات الكبيرة الشائعات الحروب أكثر من سبعين واقعة التي كانت عبارة عن سرايا وخمس عشر غزوة التي كانت عبارة عن حروب كبرى رغم كل ذلك فشل الطغاة وفشل المستكبرون وقام دين الله وجاء الفتح والنصر والغلبة وضاع الشرك

وتهاوى الطغاة والمستكبرون وذلوا وهانوا وقام الإسلام وعم وانتشر في الجزيرة العربية بكلها ليبدأ إشعاعا نورانيا إلى بقية الأرض ولتمتد لتمتد فروعه إلى بقية العالم هذا عبرة وآية كبيرة آية كبيرة لأن الله جل شأنه عندما قال ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾‹الصف٨› لو كرهوا ولو حاربوا ولو عاندوا لو قتلوا لو دمروا لو عملوا ما عملوا في سبيل إطفاء هذا النور فإنه لا بد أن يتم لأن الله معه ويتمه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾‹التوبة٣٣› الرسالة هذه جاءت لتنتصر الدين هذا جاء ليغلب وإنما من ينال شرف أن يتحرك هو فيحظى بهذا الشرف الكبير الله جل شأنه عندما أرسل رسوله فهو أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره المشروع الإلهي الدين دين الله رسالته العظيمة ومشروع أتى به الله ليظهر وليس ليسقط ولا ليضيع.

إن من عظمة هذا الإسلام من عظمة دين الله من عظمة رسالة الله من عظمة هدى الله أنه مهما كانت إمكانيات أعداءها مهما كان حجم إمكانياتهم مهما صادفت أو واجهت من عوائق ومتاعب وصد ومشاكل كبيرة إلا أنه حتما تنتصر رغم كل ذلك رغم كره الكافرين وكره المشركين وكره المجرمين ينتصر دين الله على رغم آنافهم ولو عملوا ما عملوا في مواجهته لأن الله معه وتكفل ليظهره أرسل لم يرسل رسولا ويتركه ويرسل دينا ويتركه ويتخلى عنه ليكون دينا مقهورا ضائعا تحت وطاءة المجرمين وسعي المستكبرين وطغيان الطغاة والظالمين لا.

أرسل هذا الدين وتكفل هو بأن يظهره ليظهره على الدين كله فيكون

الدين الحق وهدى الله جل وعلى ظاهرا وغالبا وكلمة الله ستكون هي العليا وهذا ما حصل.

لقد بدأ محمد مشواره وحيدا من مكة المكرمة رجل لوحده صدع بأمر الله لوحده تحرك لوحده ووقف ضده كل طغاة العالم يهودا ونصارى ومن مشركي العرب ومن قومه الأقربين وقفوا ضده تآمروا ضده شنوا عليه حروبا كبيرة حروبا إعلامية وحروبا أخرى عسكرية وحربا اقتصادية أيضا لكن كل جهودهم فشلت وانتشر الحق وانتشر الإسلام وعم الإسلام وساد الإسلام وسقط الشرك وسقطت الأصنام الحجرية وذلت وهانت الأصنام البشرية ودخل أبو سفيان بالرغم عنه في الإسلام تحت قوة الإسلام وقهر الإسلام ذليلا وهو على رغم تجبره لم يفلح فيما رام إليه وسقط أبو جهل وغيره من الطغاة في ميادين القتال والحرب.

نعرف هنا عظمة الإسلام عظمة الإسلام أنه مشروع مكتوب له النجاح مشروع إلهي مكتوب له الغلبة مكتوب له الظفر مكتوب له النصر.

لقد تحرك رسول الله كأعظم قائد عسكري وبطل ورجل عظيم ليقارع الطغيان، ليقارع المنكر، واجه اليهود وهزمهم، وواجه مشركي العرب وطغاة العرب، والمفسدين من العرب وهزمهم، وواجه أيضاً النصارى بكل إمكانياتهم العسكرية وانتصر عليهم.

هذا هو رسول الله الذي خاض الكثير من المعارك ذوداً عن الحق، من أجل المستضعفين، من أجل المظلومين، من أجل إقامة الحق، من أجل إزالة الظلم وإزالة الطغيان، على هذا الأساس قام الدين، وقام الحق، وقام العدل، وأصبح للمسلمين كيان عزيز، وكيان مقتدر وقوي.

الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) بجهاده العظيم حتى وهو يحتضر، وهو يحتضر على فراش الموت كان قد أعد سرية جهادية، أعد جيشاً مجاهداً وهو يقول: «**أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة**»، بهذه الجهود العظيمة التي بذلها (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو يبلغ ثم وهو يقاتل، ثم وهو يُربّي، ثم وهو يعلم، ثم وهو يصلح، بهذه الجهود العظيمة قام للإسلام كيان عزيز وعظيم وقوي.

لكنه فيما بعد وللأسف تضعضع ذلك البنيان وحصل تراجع لدى المسلمين، تراجع عن تلك التعليمات المهمة والعظيمة، وفي نفس الوقت صحب هذا التراجع ذلة وهوان، وصحبه تشتت وفرقة، وصحبه انعدام للضمير وانعدام للشعور بالمسؤولية، وانحطاط في القيم، حتى أصبح أغلب المنتمين للإسلام يحملون نفوساً مهزومة ومأزومة وضعيفة وهزيلة، وفي نفس الوقت أصبحوا قابلين لأن يُظلموا وأن يُستذلوا وأن يُقهروا وأن يُهانوا.

وها هو هذا النور قد عاد من جديد من خلال هذه المسيرة المباركة ولا شك بأن دين الله المحمدي الأصيل الذي تتحرك هذه المسيرة على أساسه هو الموعود من الله المقتدر بالنصر والتمكين والغلبة وهذا إيماننا وهذه ثقتنا، ليس بمقدور أي أحد مهما كان ومهما كانت إمكانياته أن يُطفئ نور الله، أو أن يحول دون نفوذ إرادة الله في ظهور دينه وهديه والحق الذي أنزله يقول الله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ × هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ ‹الصف:٨-٩› صدق الله العظيم.

الإسلام العظيم قادرٌ على تقويض الجاهلية الأخرى

الرسالة الإلهية تحقق للإنسان الحرية الحقيقية، والكرامة والعدل، وهي بصائر ونور تصنع وعياً عالياً، وحكمة فائقة، ونظرة صحيحة إلى الواقع وإدراكاً للحقائق، وهي فرقان وحماية من التضليل والخداع، وهي صلة بين الناس وبين الله ربّهم، يترتب عليها الرعاية الإلهية الواسعة من نزول البركات وسعة الخيرات وتحقق النصر والوصول إلى السعادة.

ولولا الانحراف والتحريف في مسيرة الأمة لما وصل الأمر إلى ما عليه الحال الذي تعيشه الأمة الإسلامية وبقية العالم، ولكان واقع العالم مختلف تماماً، ولولا التفريط بتلك المبادئ والأخلاق لما وصلت الأمة إلى ما وصلت إليه من الانحطاط والضعة وهيمنة أعداءها عليها، بل وواقع العالم بشكل عام، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وصدق رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) حيث قال: «**بعثت بين جاهليتين أخراهما شر من أولاهما**».

ولمواجهة جاهلية العصر بهمجيتها وطغيانها التي تقودها أمريكا وإسرائيل والتي أُميت فيها من الإسلام روحه، مكارم الأخلاق والعدل والخير والقيم العظيمة والمبادئ المهمة، يجب أن يتحرك الربانيون والأخيار والعظماء من أبناء الأمة ومعهم جماهير الأمة ورجالها بالنور والعزم والإيمان والمبادئ والمواقف التي بها انمحى ظلام الجاهلية الأولى، وزال ظلمها وطغيانها وهمجيتها وإجرامها وفسادها.

والإسلام العظيم بمنهجه النقي الصحيح غير المزيف، ورموزه الحقيقيين غير الوهميين والمصطنعين قادرٌ على تقويض الجاهلية الأخرى كما قوّض وأنهى الجاهلية الأولى؛ لأنه من الله ومعه الله،

وهـو ديـن مكتوب له من الله الغلبة والظهور، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِه الْمُشْرِكُونَ﴾ ‹التوبة:٣٣› وهو نور الله ﴿وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِه الكَافِرُونَ﴾ ‹التوبة:٣٢›، وهـو دين الفطـرة ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ‹الروم:٣٠›.

والمستقبل للإسلام والعاقبة للمتقين والنصر للمستضعفين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

المحتويات

من أين نتعرف على شخصية الرسول صلوات الله عليه وعلى آله؟..... ٦
الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من أهم وسائل التعرف على هذا النبي العظيم ١٠
يمن الإيمان والحكمة يجعل من مناسبة المولد يوماً مجيداً رغم التحديات: ١٠
هدى الله ووحيه يواكب مسيرة الحياة البشرية ١٣
من أبرز الأهداف لرسل الله ولرسالاته ١٣
١ـ تحرير الإنسان من العبودية لغير الله ١٣
٢ـ تربية الإنسان ليكون بمستوى تحمل المسؤولية ١٤
٣ـ إصلاح الإنسان وتربيته وتأهيله ١٥
٤ـ إقامة القسط في الحياة: ١٦
الأمم الماضية تعاملت مع أنبياء الله ورسالته بطريقة خاطئة ١٧
عجلة الحياة تسير ونكبات البشرية استمرت نتيجة البعد عن هدى الله ... ١٩
بنو إسرائيل وتجربتهم مع رسالات الله ١٩
وضعية العالم قبل البعثة ٢٠
وضعية العرب في الجزيرة العربية ٢٠
ولهذه المرحلة الختامية أتى من الله نوره الأعظم ٢٣
محمد يعيش أيام طفولته في البادية ٢٤
موت أمه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): ٢٤
شبابه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): ٢٥
الصادق الأمين: ٢٦
نزول الوحي عليه بالرسالة الخاتمة ٢٧
محمد هو الرحمة المهداة: ٢٧

أتى الرسول محمد (صلى اللّه عليه وآله وسلم) في إطار المشروع الإلهي: .. ٣٠
جاء بمشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ٣١
اصطفاه اللّه ومنحه المؤهلات العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليته العالمية: ٣٢
لقد كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة: ٣٥
الرسول هو نعمة على العرب قبل غيرهم من الأمم: ٣٧
الرسول بعث معلماً ومربياً لأمته: ٣٩

مكة المكرمة بداية المشوار ٤١

طواغيت مكة في مواجهة المشروع الإلهي: ٤١

بعض الأحداث التي جرت في مكة خلال ثلاث عشر سنة ٤٦

وأنذر عشيرتك الأقربين: ٤٦
تعذيب المستضعفين: ٤٨
الهجرة إلى الحبشة: ٤٩
إسلام حمزة: ٥٢
حصار الشعب: ٥٣
عام الحزن: ٥٥
اللقاء بالأوس والخزرج: ٥٧
ووجه النبي بشكل كبير من مجتمع قريش: ٥٩
كان مشركوا مكة يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس لله ولبيته الحرام كما هو الحال اليوم من نظام آل سعود: ٦٠
النبي لم يفشل فقد حقق نتائج مهمة جداً في مكة: ٦١
قلق قريش يزداد: ٦٢
كان المجتمع المكي أمام شرف عظيم جداً: ٦٣

وهنا أتى من اللّه قرار بالهجرة ٦٦

بعض مميزات المجتمع المدني: ٦٧
الأنصار نالوا الشرف العظيم: ٦٩
ولنترك الرواية للمؤرخين: ٧٠
ليلة الهجرة: ٧٣

أهل يثرب في انتظار وصول الرسول: ٧٥
الهجرة كانت تحولا كبيراً في تاريخ الإسلام: ٧٧
من أهم العبر والدروس من الهجرة ٧٩
أن الإسلام هو مشروع إلهي مكتوب له من الله أن ينتصر: ٧٩
أن الحق دائما يبقى له وجود ويبقى له أنصار : ٨٠
سنة الاستبدال: ٨١
أُسُسُ المجتمع الجديد في المدينة ٨٣
أولاً: بناء المسجد ٨٣
ثانياً: تقوية الجبهة الداخلية من خلال: ٨٤
ثالثاً: بناء الدولة ٨٥
مرحلة الصراع المسلح ٨٨
غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ - يناير ٦٢٤م) ٨٨
النبي كان قائداً عظيماً: ٨٩
حجم التدخل الإلهي: ١٠٠
- أمد الله المسلمين بالملائكة: ١٠٠
- النعاس ونزول المطر: ١٠٠
- وعند المواجهة يتدخل هو سبحانه وتعالى: ١٠٠
الدروس والعبر ١٠٢
- أن تطهير الأرض من الفساد قضية تقع على عاتق المؤمنين ١٠٢
- الرصد والرقابة: ١٠٣
- الاستغاثة القوية بالله الذي بيده النصر ١٠٣
- الرهان على الله والثقة بالله. ١٠٣
- في بدر الرسول قدم درسا مهما لأهل البيت ١٠٣
- قدم لنا القرآن الكريم كيف تكون نهاية الطواغيت ١٠٣
- النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) قدم للأمة درسا مهما في الصراع هو أن تكون أمة مستقلة ١٠٤
غزوة أُحُد (السبت ٧ شوال ٣هـ يناير ٦٢٥م) ١٠٦
رسول الله (صلوات الله عليه وآله) يرصد تحركات قريش ١٠٦

آثار التفريط في طاعة القائد ١١٠
التدخل الإلهي يمنع المشركين من مواصلة التقدم: ١١٢
أهم الدروس والعبر ١١٣
- أولاً: السمع والطاعة للقائد: ١١٣
ثانياً: عدم التنازع بين المجاهدين لأنه يؤدي إلى الفشل ١١٣
ثالثاً: أن يفهم الناس بأن من عواقب التفريط أن تخسر الأمة عظماءها: .. ١١٥
رابعاً: خطورة التصنيفات والتأويلات أمام أي توجيهات تأتي من القائد: .. ١١٨
خامساً: ظهر في أحد عظمة الرسول كقائد عسكري: ١١٩
سادساً: من أهم الدروس في أحد غربلت النفوس ١٢١
غزوة الخندق (الأحزاب) (في شوال سنة خمس هجرية - ٦٢٧م) ١٢٣
الشعب اليمني اليوم يعيش أجواء غزوة الأحزاب: ١٣٤
من أهم الدروس والعبر ١٣٥
١) أن تظل ثقتنا بالله كبيرة مهما كان حجم التآمر وأن لا نسيء الظن بالله مهما حصل من متغيرات ميدانية المهم أن نأخذ بأسباب النصر. ١٣٥
٢) أن نعرف أن الشدائد أحياناً تعتبر مقدمات فتح: ١٣٦
٣) أن الإنسان المؤمن يزداد إيماناً مع الشدائد: ١٣٧
غزوة خيبر (سنة ٧ هـ - ٦٢٨م) ١٣٩
من أهم الدروس والعبر ١٤٣
١) معرفة القيادة والأمة التي تستطيع هزيمة اليهود: ١٤٣
فتح مكة (في شهر رمضان سنة ثمان هـ، يناير ٦٣٠م) ١٤٥
- رسالة حاطب بن أبي بلتعة ١٤٦
- السرية عامل مهم في الحروب ١٤٧
- كيف دخل الرسول مكة؟ ١٤٨
أروع صور العفو: ١٤٩
من أهم الدروس في هذه الغزوة ١٤٩

- العفو عند المقدرة: ١٤٩
- أن لا يغرق الإنسان في ذاتيته: ١٥٠
غزوة حُنَين (في ١٠ شوال ٨ هـ فبراير ٦٣٠م) ١٥٢
عودة المسلمين إلى القتال: ١٥٣
الرسول يشيد بالأنصار بعد معركة حنين: ١٥٤
العبر والدروس ١٥٦
أن يظل ارتباط المؤمنين بالله قوياً مهما كانت قوتهم: ١٥٦
غزوة تَبُوك (في رجب ٩ هـ - أكتوبر ٦٣٠م) ١٥٨
الدروس والعبر ١٦٤
١) الالتجاء إلى الله والثقة به: ١٦٥
٢) نتعلم من غزوة تبوك وسورة التوبة كيف نواجه دعايات المنافقين وإرجافهم: ١٦٦
٣) الرسول قدم درساً مهماً للأمة كيف تكون معتمدة على نفسها وعلى ربها: ١٦٧
٤) التعبئة العامة وخطورة الصمت في مواجهة أهل الكتاب: ١٦٩
٥) المبادرة والمسارعة: ١٧٠
وهكذا تمكن النبي في فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع بكله ١٧٢
لم يكن النبي يفرض هيمنة شخصية على الناس: ١٧٢
الإسلام يربي رجالاً يواجهون المستكبرين: ١٧٣
كيف يجب أن يكون ارتباط الأمة بنبيها؟ ١٧٥
وأخيراً ١٧٦
الإسلام العظيم قادرٌ على تقويض الجاهلية الأخرى ١٨٠

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

ذكرى المولد النبوي الشريف 1438 هـ